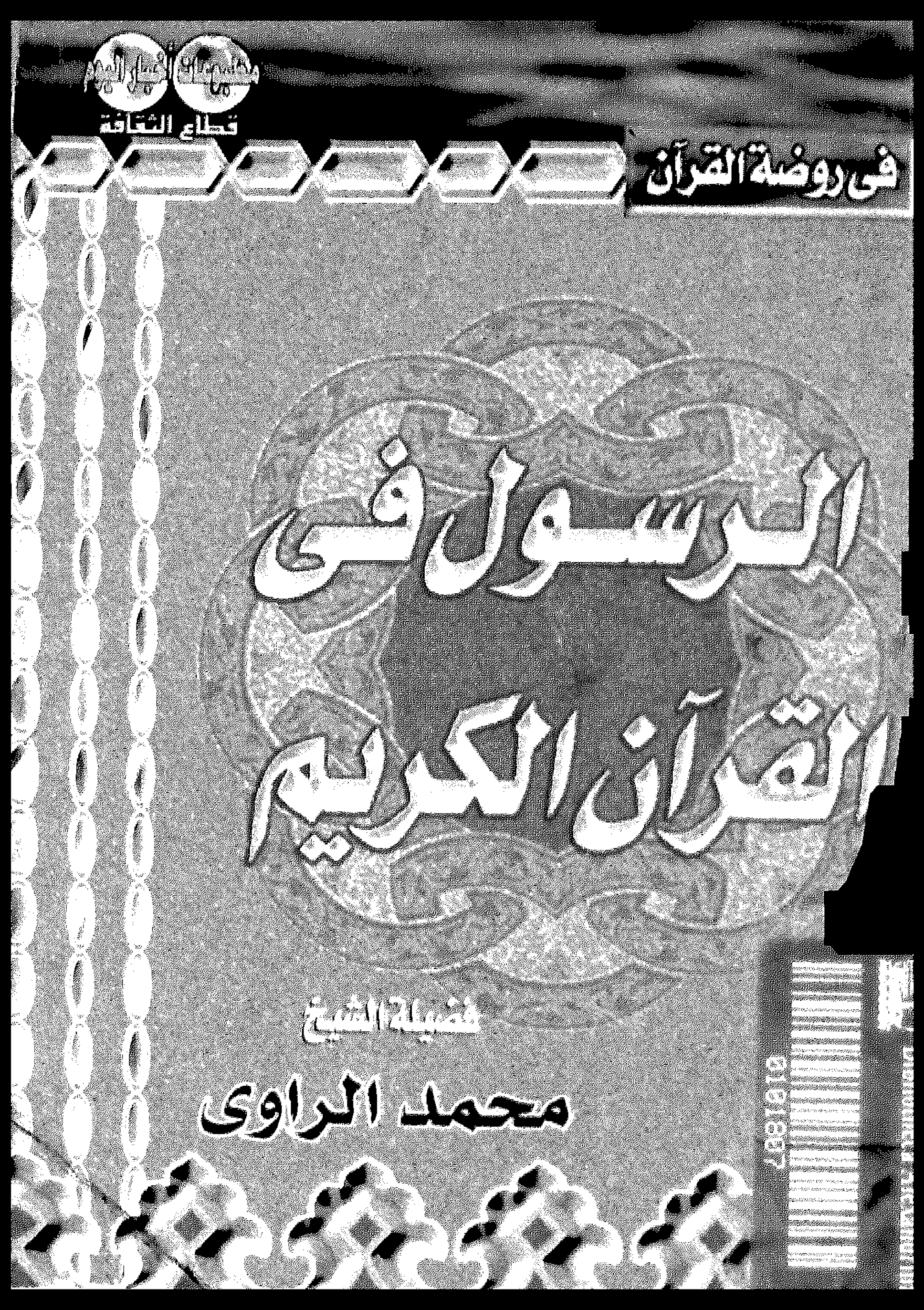

مطبوعات أخبار اليوم
قطاع الثقافة
فى روضة القرآن
الرسول فى القرآن الكريم
فضيلة الشيخ
محمد الراوى

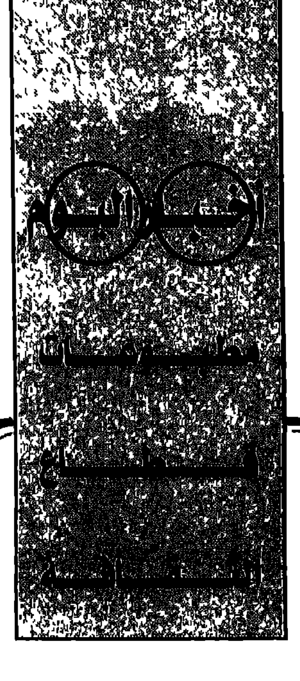


في روضة القرآن

الرسول في القرآن الكريم

فضيلة الشيخ: محمد الراوى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم سعده



تصميم الغلاف والإخراج الفنى

أشرف حسين

تمهيد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا
مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ
وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَنْ نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا
وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣) ﴾

(الشورى : ٥٢ ، ٥٣)

هنا نرى الرسول ﷺ يُخاطب من قبل الله خِطابَ حاضرٍ مكرَّم بتوجيه الخطاب المباشر إليه ﷺ « أوحينا إليك »

« ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان »

« وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم »

ونرى ضمير العظمة يتكرّر فى قوله « أوحينا » وقوله « روحا من أمرنا »

وقوله « جعلناه نوراً » وقوله « نهدى به من نشاء من عبادنا ».

وفى ذلك مافيه من دلالة على عظمة المُوحَى به والموحَى إليه

فالموحَى به من العليِّ العظيم روحٌ تحيا به القلوب

والموحَى إليه رسولٌ له عند الله تعظيمٌ وتكريم

والنازل بالوحى هو الروح الأمين وهو ذو قوة عند ذى العرش مكين

وجبريل عليه السلام وإن رأينا مـا يدلُّ عليه فى قوله « وكذلك أوحينا إليك ».

فقد جاء ذكره ووصفُه فى آيات تَرَى فيها حقيقةَ الصِّلة بين مَنْ نَزَّل القرآن وَمن نَزَلَ به ومن نُزِّل عليه.

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) ﴾
﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾
﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) ﴾ (الشعراء : ١٩٢ـ ١٩٤)

فمن نَزَّل القرآن هو الله ربُّ العالمين
ومن نَزَل به هو الروحُ الامين جبريل عليه السلام.
ومن نُزِّل على قلبه هو الصادقُ الامين خاتم النبيين محمد ﷺ
وكفى أن يكون القرآن تنزيلَ رب العالمين ليكون للعالمين نذيراً
وأن يكون النازل به هو الروحُ الامين الذى كان وليًا لجميع المرسلين

ليُعلم أنَّ الدين عند الله واحدٌ وأن من نزل به هو امين الله الذى أمره ربُّه أن يتنزَّل على جميع المرسلين

ولذلك قـال ورقـةُ بنُ نوفل عندمـا سمع من رسول الله ﷺ ما سمع من أمر الوحى . قال : « هذا الناموس الذى أنزله الله على موسى »

والناموس : هو جبريل عليه السلام
والناموس فى اللغة : « صاحب سرِّ الخير »
والجاسوس : « صاحب سرِّ الشر »

وقد سميّ جـبريل عليه السلام بذلك لأن الله تعالى قـد خصّه بالغـيب والوحى وورقـةُ بن نوفل إنما علِمَ ذلك مما نَزَلَ فى كـتب الله من قبل كما علم سنة الله فى المرسلـين . وكان امرءًا قد تَنَصَّر فى الجاهلية.

حيث قال ـ عندمـا قالت له خديجة رضى الله عـنها اسمع من ابن أخيك :

قال ورقةُ بنُ نوفل : يا ابن أخى ! ماذا تري؟

فأخبره رسولُ الله ﷺ خبرَ مارآه.

فقال له ورقةُ : هذا النّاموس الذى أنزل على موسى ﷺ .

ياليتنى فيها « جذَعًا ». يالَيْـتَنى أكونُ حيًّا حين يخرجك قومك: قال رسولُ الله ﷺ : « أوَ مُخْرِجيَّ هم » ؟

قال ورقةُ : نعم . لم يأت رجلٌ قطُّ بما جئت به إلاّ عُورِى »

سنة الله فى المـرسلين واحـدة ، ودينهم واحـد. وجـبـريلُ هو النامـوس الذى أنزله الله على مـحمـد ﷺ كمـا أنزله على جمـيع المرسلين من قبـل والكيدُ لهم هو الكيد. والعـداءُ هو العداء لجـميع الأنبياء.

﴿ وَكَـذَلِكَ جَـعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَـدُوًّا مِّنَ الْمُجْـرِمِينَ وَكَـفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (٣١) ﴾ (الفرقان : ٣١)

﴿ سُنَّةَ مَن قَـدْ أَرْسَلْنَا قَـبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِـدُ لِسُنَّتِنَا تَحْـوِيلًا (٧٧) ﴾ (الإسراء : ٧٧)



في روضة القرآن

الرسول في القرآن الكريم

لا غرابة أن ترى الرسول ﷺ في كل آية من آيات القرآن الكريم وأنت تستحضر هذه الصلة بين من نَزَّل القرآن ومن نَزَلَ به ومن نُزِّل عليه.

تراه ﷺ وهو يتلقى القرآن من لدن حكيمٍ عليم وجبريلُ يُقرئه فيتبع قراءته في كل كلمة من كلمات القرآن فلا يغيب عنك حضور جبريل عليه السلام كما لا يغيب عنك حضور الرسول عليه الصلاة والسلام في كل آية من آيات القرآن وهذا الاستحضار لازمٌ لمن أراد أن يتدبر القرآن.

لأنه الإعجاز الذي يُعَرفُ به كيف حُفظَ القرآن وكيف تلقاه الرسول ﷺ ولم يكن يدري من قبل ما الكتاب ولا الإيمان. وما كان يتلو من قبله من كتابٍ ولا يخطه بيمينه.

وأي إعجاز أبين من ذلك وأنت ترى الرسول ﷺ قد جُمع القرآن في صدره بتلاوة جبريل عليه وجَمْعِ اللّه له.

أي أعجاز أبين من ذلك وأنت ترى الوحي يأتيه ثم يُسرّى عنه فيقرأ ويُملِي ما أُلْقي عليه طالت الآيات أو قَصُرت.

عن زيد ابن ثابت رضي الله عنه قال: إني قاعدٌ إلى جنب النبي ﷺ يوماً إذ أوحي إليه وغشيته السكينةُ ووقع فخذه على فخذي حين غشيته السكينة قال زيد : فلا والله ما وجدت شيئاً قط أثْقلَ

من فخذ رسول الله ﷺ ثم سُرِّى عنه فقال : اكتب يازيد »

هكذا كان يتلقى رسول الله الوحى وكانت تلك شدته : قالت عائشة رضى الله عنها ـ وهى تصف حال رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحى ـ « وَقَدْ رأيته ينزلُ عليه فى اليوم الشديد فيفصم عنه وإن جبينه لَيَتَفَصَّدُ عرقا ».

من الذى أقرأه وجمع له القرآن فى صدره وقد كان ﷺ يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحى حرصاً على الوحى وشفقة على القرآن مخافة النسيان فنهاه الله عن ذلك وأنزل «ولا تعجل بالقرآن » أى بقراءته « قبل أن يقضى إليك وحيه ».

إن الله قد تكفل له أن يجمعه فى صدره وأن يُيَسِّرْ لأدائه على الوجه الذى ألقاه إليه وأن يبينه له ويفسره ويوضحه.

وقد كان ﷺ يبادر إلى أخذه ويسابق الملك فى قراءته فأمره الله عز وجل إذا جاءه الملك بالوحى أن يستمع له.

وذاك ما كان منه ﷺ .

« فكان إذا أتاه جبريل أطرق فإذا ذهب جبريلُ قرأه

كما وعده الله عز وجل حيث قال :

﴿ لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩) ﴾ (القيامة : ١٦ ـ ١٩)

في روضة القرآن

القرآن الكريم يصف لنا الروح الأمين

لنعلم أن أحدًا لم يستطع ولن يستطيع أن يغالب القرآن ولنتدبر دلالة القسم والمقسم عليه فى قوله تعالى :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ (١٥) الْجَوَارِ الْكُنَّسِ (١٦) وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ (١٧) وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ (١٨) إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ (٢١) وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ (٢٢) وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ (٢٣) وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ (٢٤) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ (٢٥) فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ (٢٦) إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٢٧) ﴾(التكوير : ١٥ ـ ٢٧)

إن المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه يمكن إدراكها اذا تبينا دلالة ما جاء فى القسم أولا من كلمات:

« فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس » : وهى النجوم : تخنس بالنهار وتظهر بالليل

والليل إذا عسعس : أدبر أو أقبل . أقسَمَ بالليل وظلامه إذا أقبل وبالفجر وضيائه إذا أشرق « والصبح إذا تنفّس »

يُقال للصبح إذا زاد « تنفس »

ومعنى التنفس : خروج النفس من الجوف واستعماله فى الصبح دلالة حركة وحياة تُرى فى الأشياء كما تُرى فى الإنسان . وفى تنفس الصبح حركة حياة تدب فى كل شئ ومن رأى الفجر لم تغب عنه دلالة إسناد التنفس إليه.

وهذا الإسناد قد قيل فى كيفية المجاز فيه قولان :

الاول : أنه إذا اقبل الصبح أقبل بإقباله روح ونسيم فجعل ذلك نفساً له على المجاز فقيل تَنَفَّس الصبح»

الثانى : انه شبَّه اللّيلَ المظلمَ بالمكروبِ المحزون الّذى حُبِسَ بحيث لا يتحرك فإذا تَنَفَّس وَجَدَ رأحة وههنا لما طَلَع الصُّبْح فكأنَّه تخلَّص من ذلك الحُزْن فَعَبَّر عنه بالتنفس.

ذاك هو القسم على طبيعة الوحى ، وصفة الرسول الذى يحمله والرسول الذى يتلقاه.

إنه قسم لا يخلو من تناسب بينه وبين المقسم عليه

تناسب لا ينقضى عجب المتأمل فيه

فالمقسم به حقائق كونية ذات تأثير بالغ فى حياة كل شئ

والمقسم عليه حقائق نورانية يبصر بها الانسان حقيقة كل شئ

المقسم به ترتفع به الرؤوس إلى أعلا لتراه أولا فى السماء

والمقسم عليه ترتفع به النفوس عن الخلود إلى الأرض واتباع الاهواء

المقسم به فيه إقبال صبح وإدبار ليل . فيه نور وظلام

والمُقسم عليه فيه إخْراجٌ للنَّاسِ من الظلمات إلى النور

«إنه لقول رسول كريم» يعنى إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم أى مَلَكٌ شريف حسن الخَلْق بهى المنظر وهو جبريل عليه السلام كما قال ابن عباس رضى الله عنهما «ذى قوة» أى شديد

الخلق شديد البطش والفعل.

(عند ذى العرش مكين) أى له مكانة عند الله عز وجل ومنزلة رفيعة مُطَاعٍ ثَمَّ امين» اى له وجاهة وهو مسموع القول مطاع فى الملا الأعلى «مطاع ثَمَّ» اى فى السموات يعنى ليس هو من أفناد الملائكة بل هو من السادة والأشراف معتنى به انتخب لهذه الرسالة الرفيعة.

« أمين » صفة لجبريل بالأمانة وهذا عظيم جدا أن الرب عز وجل يزكى عبده ورسوله الملكى جبريل.

كما زَكّى عبده ورسوله محمداً ﷺ بقوله تعالى : «وما صاحبكم بمجنون» والمراد بقوله «وما صاحبكم بمجنون» محمد ﷺ.

وقوله «ولقد رآه بالافق المبين» يعنى ولقد راى محمدٌ جبريل الذى يأتيه بالرسالة عن الله عز وجل على الصورة التى خلقه الله عليها له ستمائه جناح

« بالافق المبين » اى البيِّن.

وقوله « وما هو على الغيب بضنين » أى وما محمد على ما أنزله الله إليه ببخيل بل يبذله لكل أحد (وما هو على الغيب بظنين) أى بمتّهم قال سفيان بن عيينه ظنين وضنين سواء اى ماهو بكاذب وما هو بفاجر والظّنين المتهم والضّنين البخيل.

وقال قتادة : كان القرآن غيباً فانزله الله على محمد فما ضَنَّ به على الناس بل نشره وبلّغه وبذله لكل من أراده.

وقوله «وما هو بقول شيطان رجيم» أى وما هذا القرآن بقول شيطان رجيم أى لا يقدر على حمله ولا يريده ولا ينبغى له كما قال الله عز وجل:

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ (٢١٢) ﴾ (الشعراء : ٢١٠ ـ ٢١٢)

وقوله «فأين تذهبون» أى عن كتاب الله وعن طاعته أو فأين تذهب عقولكم فى تكذيبكم بهذا القرآن مع ظهوره ووضوحه وبيان كونه حقًا من عند الله وقوله تعالى «إن هو إلا ذكر للعالمين» أى هذا القرآن ذكر لجميع الناس يتذكرون به ويتعظون.

تلك طبيعة الوحى وصفة الرسول الذى يحمله والرسول الذى يتلقاه.

إن الصفات التى أجراها الله على جبريل فى هذه الآيات البينات ليست بمعزل عن صفات الرسول ﷺ وبيان ما أنزل عليه وقد أجرى الله على نبينا ﷺ صفات فى قوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا (٤٦) ﴾ (الاحزاب : ٤٥ ـ ٤٦)

فإفراد أحد الشخصين بالذكر وإجراء صفاته عليه لا يدل على انتفاء تلك الصفات عن الآخر.

والتواصل قائم بين من نَزَل بالقرآن ومن نُزِّل عليه

فإذا وصف جبريل فاعلم أنها صفاتُ حقٍّ وُصِفَ بها جبريل ليُعرف قَدْرُ الحق الذى نزل به والذى أنزل عليه.

وإذا وصف الرسول ﷺ بصفات فاعلم أنها صفات حق لبيان خصائص الحق فى نفعه ومكثه وبقائه وقد نزل به أمين الله على رسول الله.

والحق نور تقوم به الحياة وحَبْلٌ واصلٌ من السماء يعتصم به الأحياء.

ويرتفعون به عن الخلود إلى الأرض واتباع الأهواء.

«الحق من ربك»

ومن أجله خلق الله السموات والأرض وأرسل الرسل وأنزل الكتاب

ومن أجله تَنَزَّل جبريلُ بأمر ربِّه على محمد وعلى جميع الرسل والأنبياء ومن أجله يقع الحساب ويكون الجزاء وينعم فريق فى الجنة ويشقى فريق فى السعير.

إن هذه القوة والمكانة التى وصف بها جبريلُ وهو يغدو ويروح بين السماء والأرض فى سرعة خاطفة بأمر ربِّه ـ لها دلالتها فى تعظيم رسالة الرسول ﷺ وعلو منزلته ومكانته.

ومن أمعن النظر فى الصفات التى أجراها الله على جبريل فى مقام الحديث عن رسالة محمد ﷺ عرف أنها لتعظيم رسول الله ﷺ وأنه بلغ من المكانة وعلو المنزلة عند ذى العرش بأن جعل السفير بينه وبينه مثل هذا المَلَكَ المقرَّب المطاع الأمين.

فالقول فى هذه الصفات بالنسبة إلى رسول الله ﷺ رفعة منزلة له كالقول فى قوله عند ذى العرش بالنسبة إلى رفعة منزلة

جبريل عليه السلام.

قد لا ترى جبريل عليه السلام مذكوراً باسمه أو ضميره إلا فى آيات معدودات ولكنك - وأنت تقرأ القرآن - تتبعه قارئاً وتراه حاضرا وإن لم تره.

وقد حُفظَ القرآن فَحُفظَت به خصائص الروح ودلائل النبوة ومعالم الرِسالة وعرف النَاس مقاصد الدين وما نزل به الروح الأمين على قلب خاتم المرسلين وغدا الإيمان بذلك إيمان بيِّنة ومعرفة.

فلم يُفَارقنا ما كان به الرسولُ رسولاً وإن لقى ربَّه

ولم يفارقنا ما نزل به جبريل وإن انقطع عهده بالدنيا بعد أن لحق الرسول ﷺ بالملأ الأعلي.

روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن جبريل عليه السلام أتَى النبى ﷺ فى مرضه الذى قُبِض فيه.

فقال : إن الله عز وجل يُقْرئك السلام ويقول : كيف تجدك؟

قال : أجدنى وَجِعًا ياأمين الله.

ثم جاءه من الغد فقال : يامحمد إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول :

كيف تجدك ؟

قال : أجدنى يا أمين الله وَجِعاً

ثم جاءه فى اليوم الثالث ومعه ملك الموت فقال :

يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول كيف تجدك ؟

قال : أجدنى يا أمين الله وجعاً مَنّ هذا معك ؟

قال : هذا ملك الموت عليه السلام .

وهذا آخر عهدى بالدنيا بعدك وآخرُ عهدك بها .

ولن آسى على هالك من ولد آدم بعدك .

ولن أهْبِطَ إلى الأرض إلى أحدٍ بعدك .

فوجد النبى ﷺ سكرة الموت وعنده قَدحٌ فيه ماء .

فكلما وجد سكرةً اخذ من ذلك الماء ، فمسح به وجهه ويقول :

اللهم أعنِّى على سكرة الموت .

نعم كان ذلك آخر عهد جبـريل بالدنيا وآخرعهد رسول الله ﷺ بها .

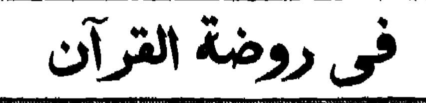
ولكن القرآن الكريم الذى من أجله تنزَّل جبريل .

وارسل الرسول قد حُفظ بحفظ الله عز وجل .

فبـقى لنا قـول جبريل وامـتد ذكـرهُ وحفظ أثرهُ « وإنه لـقول رسـول كريم » كـما بقى لنا الرسـول ﷺ اسوةً وقـدوةً إلى يوم الدين بقى الرسول ﷺ فينا برسالته .

وبقى الروح الامين مذكوراً بقوته وأمانته .

ولن يكون هناك ايمـان بغـير الإيمـان بالله ومـلائكته وكـتبـه ورسله واليوم الآخر .



القرآن كأنما نزل الآن

٤ - القرآن كأنما نزل الآن

بقى القرآن محفوظاً بحفظ الله

فلم يعد هناك تكلّف فى استـحضـار الصلة بين من نَزّل القرآن ومن نَزَلَ به ومن نُزّل عليه .

وأنت تقرأ القرآن فترى وتسمع ولا يـفصلك عما جاء به القرآن فواصل زمان أو مكان .

تقرأ القرآن وكأنما نَزَل الآن والرسول الذى يتلقاه تراه حاضرا وجبريل الذى نزل به ليس بعيداً أو غائباً .

ذاك ما تحقـقه لك تلاوة القرآن وما تجـده دون تكلف أو خفاء برهان .

تعال بنا إلى روضـة القرآن الكريم لنرى الرسول ﷺ مَخـاَطباً حاضـرا ونَرى جبـريل بكلام الله آتيا . ونرى الحكم الـذى جاء به على الزمان مَتْلُوّا وباقيا يُحكم به على مَرّ الزمان وكأنما نزل الآن.

مع أن الحكم قد نزل فى خـويلة بنت ثعلبة وزوجـها أوس بن الصامت حين قال لها : أنت علىّ كظهر امى .

وسببه مـا روى انها كانت حسنة الجسم فدخل عليـها زوجها مرّة فرآها ساجدة فى الصلاة فنظر إلى عجيزتها فاعجبه أمرها .

فلما انصـرفت من الصلاة طلب وقـاعها فـأبت فغضب عليـها وكَانَ به لَمَم فاصابه بعضُ لَمَمِه .

فقال : أنْت علىّ كظهر أمى ثم نَدم علَى ما قال .

وكان الظِّهَارُ والإيلاء من طلاق أَهل الجاهلية .

فقال : ما أظنُّك إلا قد حرمت علىّ .

فقالت : والله ما ذاك طلاق .

فأتت رسول الله ﷺ وعائشة تغسل شق رأسه .

فقالت يا رسول الله إن زوجى أوس بن الصامت تزوجنى وأنا شابة غنية ذات أهل ومال .

حتى إذا أكل مالى وأفنى شبابى وتفرّق أهلى وكَبُر سِنّى ظَاهَرَ مِنّى وقد نَدِم .

فهل من شئ يجمعنى وإياه تُنْعشنى به .

فقال رسول الله ﷺ حرمت عليه .

فقالت : يا رسول الله والذى أنزل عليك الكتاب ما ذكرَ الطلاق .

وإنه أبو وَلَدِى وأحبُّ الناس إلىّ .

فقال رسول الله ﷺ حَرُمت عليه .

فقالت : أشكو إلى الله فاقتى ووحدتى . فقد طالت له صحبتى ونفضت له بطنى .

فقال رسول الله ﷺ : ما أراك إلا قد حَرُمْت عليه ، ولم أُومر فى شأنك بشئ فجعلت تراجع رسول الله ﷺ ، وإذا قال لها رسول الله ﷺ حرمت عليه هتفت وقالت : أشكو إلى الله فاقتى وَوَحْدَتى وشدة حالى وإن لى صبية صغاراً ، إن ضممتهم إلىّ جاعوا ، وإن ضممتهم إليه ضاعوا وجعلت ترفع رأسها إلى السماء وتقول

« اللهم اشكو إليك .

اللهم فأنزل على لسان نبيك فَرَجى . فكان هذا أول ظهار فى الإسلام »

فقامت عائشة تغسل شق رأسه الآخر .

فقالت : انظر فى أمرى جعلنى الله فداك يا رسول الله .

فقالت عائشة رضى الله عنها : أقصرى حديثك ومجادلتك أما رأيت وَجْهَ رسول الله ﷺ . وكان إذا نزل عليه الوحى أخذه مثلُ السُّبات أى النوم فلما قضى الوحى .

قال ﷺ : ادعى لى زوجك فدعته .

فتلا عليه رسول الله ﷺ :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلاَّ اللاَّئِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤) ﴾ (المجادلة : ١ ـ ٤)

روى الشيخان عن عائشة رضى الله عنها قالت :

« الحمد لله الذى وسع سمعه الاصوات » لقد جاءت المجادلة خولة إلى رسول الله ﷺ وكلَّمته وأنا فى جانب البيت وما أسمع ما تقول . فأنزل الله قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها

وتشتكى إلى الله .. الآيات .

فقال ﷺ لزوجها هل تستطيع العتق ؟ فقال : لا والله فقال : هل تستطيع الصوم ؟ فقال : لا والله إنى إن أخطأنى الأكل فى اليوم مرةً أو مرتين كَلَّ بصرى وَظَنَنْتُ انى اموت .

قال ﷺ : فاطعم ستين مسكيناً

قال : ما أجد إلا أن تعيننى معونة وَصِلَة .

فاعانه رسول الله ﷺ بخمسة عَشَرَ صاعا فتصدق بها على ستين مسكيناً .

حَادثٌ وقع فى عهد رسول الله ﷺ - والقرآن يتنزل - أمِرَ جبريل أَمين الله فنزل على قلب الرسول ﷺ بما أوحى الله به .

والمُجَادلةُ لم تبارحْ مكانها . ولم تنقطع مجادلتها وشكواها وعَائشَةُ رَضى الله عنها ترى مجادلتها وشكواها ولا تسمع ما تقَول .

ولكن الله قد سمع من فوق سبع سموات

كانت عائشة رضى الله عنها حاضرة لهذه القصة كلّها

فكانت تقول : سبحان من وسع سمعُه الاصوات . لقد كنت حاضرة لهذه القصة كلّها وكان بعض كلام خولة يخفى علىَّ وسمع الله جدالها .

حادثٌ واقع فى زمن التنزيل نزل فيه قرآن كريم يُتْلى ويُسْمَع.

نَعْرفُ منه أن لا شئ من أمرنا يخفى على الله أو يغيب .

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾ ﴾

(المؤمنون : ١٧)

هذه الدلالة تراها فى حَدَث واقع لم يستطع الرسول ﷺ إلا أن يقول ـ لخولة وهى تشتكى وتجادل ـ ما أُمِرْنَا فى أمرك بشئ.

فهو ينتظر ﷺ حكم الله فيما وقع .

لم يقل لخولة أذهبى حتى يقضىَ الله فى أمرك .

وهى التى قالت لزوجها والذى نفس خويلة بيده لا تخلص إلىّ وقد قُلْتَ ما قُلْتَ حتى يحكم الله ورسولهُ فينا بحكمه .

فهى إذن تنتظر حكم الله وقد سمعت من رسول الله ﷺ ما سمعت وهى التى استعارت من بعض جاراتها ثيابا ثم خرجت حتى جاءت إلى رسول الله ﷺ فجلست بين يديه فذكرت ما لقيت منه وجعلت تشكو إليه وجعل رسول الله ﷺ يقول « يا خويلة ابن عمك شيخ كبير فاتقى الله فيه » .

كل ذلك والرسول ﷺ ينتظر حكم الله فى شأنها .

قالت خولة : فوالله ما بَرِحْتُ حتى نزل فى قُرآنٌ

فَتَغَشّى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ثم سُرِّى عنه فقال لى : يا خويلة قد انزل الله فيك وفى صاحبك قرآناً »

خولة ما برحت مكانها ولا ذهبت ثم رجعت بل كان جبريل بأمر ربه موفداً إلى رسول لله ﷺ وهو فى داره وصاحبة الشكوى ترى وتسمع . ترى دلائل الوحى فى وجه رسول الله وتسمع ما جاء به أمين الله تلاوةً من رسول الله ويأتى زوجها أوس بن الصامت فيسمع ما نزل من القرآن وما قضى الله به . ويبقى الحكم حكما لمن يأتى إلى آخر الزمان . ويبقى بيانه من

رسول الله اسوة فى الحياة . بل يبقى عمل هذه الزوجة الطهور نبراساً لمن ابتغى مرضاة الله .

قالت خولة ـ فيما رواه الامام احمد ـ حين قال الرسول ﷺ « سنعينه بفرق من تمر » .

قالت : فقلت يا رسول الله وانا ساعينه بفرق آخر .

قال ﷺ « قد اصبت وأحسنت فاذهبى فتصدقى به عنه ثم استوصى بابن عمك خيراً » قالت : ففعلت

إن مثل هذه المرأة جديرةٌ أن تكرم وأن يُسمع لها .

وذاك ما كان من عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى شأنها .

فقد روى أن عمر بن الخطاب مّر بها فى زمن خلافته وهو على حمار والناس حوله . فاستوقفته طويلا ووعظته .

وقالت : يا عمر قد كنت تُدْعى عُمَيْراً ثم قيل لك يا عمر ثم قيل لك يا أمير المؤمنين .

فاتق الله يا عمر . فإنَّ من ايقن بالموت خاف الفوت

ومن أيقن بالحساب خاف العذاب .

وهو واقف يسمعها .

فقيل له : يا أمير المؤمنين : أتقف لهذه العجوز هذا الموقف ؟

فقال : والله لو حبستنى من أول النهار إلى آخره لا زِلْتُ إلا للصلاة المكتوبة أتدرون مَنْ هذه العجوز ؟

هى خولة بنت ثعلبة .

سمع الله قَوْلَها من فوق سبع سموات .

أيسمع ربُّ العالمين قولها ولا يسمعه عمر ؟



دلالة قول الله
(قد سمع)

٥ - دلالة قول الله « قد سمع »

إن الدلالات التى تؤخذ من قول الله ﴿ قد سمع .... ﴾
ذات تأثير بالغ فى خشية القلب واستقامة النفس .
وهى تستحضر أن الله حاضرٌ فى كلّ شأن لا يغيب .

قد سمع قول التى تجادلُ رسول الله ﷺ فى زوجها وتشتكى إلى الله سمعها واستجاب لَهَا وأرسل أمين السماء يُهَدِّىءُ من رَوْعها بما أوحى الله من آيات فيها حكم الله . ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون .

ليعلم الناس جميعا أن الله لا يخفى عليه شئ فى الأرض ولا فى السماء وأن ما يقضى الله به قائم على علمٍ وحكمة وأنّ ما هم عليه معلومٌ ومشهود

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٦١) ﴾

(يونس : ٦١)

خذ مثلا آخر من كتاب الله عز وجل مسبوقا بسبب النزول .
كما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : دخل أبو بكر الصديق رضى الله عنه بيت المدراس : « المعلم المدرس » فوجد من يهود ناسا كثيرة قد اجتمعوا على رجلٍ منهم يقال له فنحاص

وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حَبْرٌ يقال له أشيع .

فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص اتق الله وأسلم فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول الله قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراه والانجيل فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر .

وإنه إلينا لفقير . مًا نتضرّع إليه كما يتضرع الينا . وإنّا عنه لأغنياء .

ولو كان عَنّا غنيًا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم .

ينهاكم عن الربا ويُعطينا ، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا .

فغضب أبو بكر رضى الله عنه فضرب وجه فنحاص ضربا شديدا .

وقال : والذى نفسى بيده لولا الذى بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك يا عدو الله فاكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين .

فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يا محمد أبصر ما صنع بى صاحبك .

فقال رسول الله ﷺ : ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر »

فقال : يا رسول إن عدوّ الله قال قولا عظيما ، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء فلما قال ذلك غَضبْتُ لله مما قال فضربت وجهه .

فجحد فنحاص ذلك ، وقال ما قُلْتُ ذلك .

فأنزل الله فيما قال فنحاص

﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ... ﴾

(آل عمران : ١٨١)

حَدَثٌ وقع فى الأرض اهتزت له السماء
لم يتدخل الرسول ﷺ لتصديق أبى بكر وهو يعلم أنه صادق وإنما جاء تصديق ابى بكر وردٌ فنحاص من عند الله
﴿ لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ... ﴾
قول الله هنا : ﴿ لقد سمع الله ﴾ فيه تهديد ووعيد للذين قالوا ماذكر وإعلامهم بأن الله علمه وأحصاه :
﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ﴾ (آل عمران : ١٨١)
هذا قولهم فى الله وهذه معاملتهم رسل الله وسيجزيهم الله على ذلك شر الجزاء ولهذا قال تعالى :
﴿ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (١٨١) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ (١٨٢) ﴾ (آل عمران : ١٨١ ، ١٨٢)
يقال لهم ذلك تقريعاً وتوبيخا وتحقيرا وتصغيرا جزاءً وفاقا .
إن دعوتهم إلى قبول الحق زادتهم طغايناً وكفراً .
﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴾
(المائدة : ٦٤)
زعموا أن الله عهد اليهم فى كتبهم أن لا يؤمنوا لرسول حتى يكون من معجزاته أن من تصدق بصدقة من امته فَتُقُبِّلت منه ان تنزل نارٌ من السماء تأكلها قال الله عز وجل لرسوله :
﴿ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (آل عمران : ١٨٣)
جاءكم رسل الله من قبلى بالحجج والبراهين « وبالذى قلتم » اى وبنار تأكل القرابين المتقبلة « فلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ » اى فلم

قابلتموهم بالتكذيب والمخالفة والمعاندة وقتلتموهم « إن كنتم صادقين » أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل .

ثم قال الله عز وجل مسلّياً نبيّهُ محمد ﷺ :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ ﴾ (آل عمران : ١٨٤)

أى لا يؤهنك تكذيب هؤلاء لك .

فلك اسوة بمن قبلك من الرسل الذين كُذّبوا مع ما جاؤا به من البينات والزبر والكتاب المنير .

هكذا نرى التواصل بين الرسول وخبر السماء

تواصل يُرى فى واقع ويُقرأ فى آيات

إعجازٌ ما بعده اعجاز . هو خيرٌ وأبقى مما يطلبه القوم من معجزات إنهم قد طلبوا المعجزة ناراً تنزل من السماء فتأكل ما قُدّم من قربان ولن تبقى ساعة من نهار .

ولكنَّ الله جعلها نوراً تبقى ما بقى الليل والنهار .

ولم تكن معجزة القرآن معجزة واحدة بل معجزات والقرآن يتنزل به جبيرل على قلب الرسول فى أية لحظة من ليل أو نهار وإن نامت عين الرسول فالعين نائمة والقلب يقظان فلم تُتْل آية على الناس من القرآن قبل أن تتلى على قلب الرسول ومن قلبه ﷺ كانت التلاوة على الناس نورا وكان الرسول ﷺ بالقرآن سراجا منيرا يسمعون القرآن من رسول الله تلاوة وذكراً ويرونه فى شخصه خُلُقاً وعَمَلاً فالقرآن الكريم لم يصل إلينا إلا مُرُوراً بقلبه ﷺ ولم نَحْفَظْه إلا من قراءته وحفظه

ولم نعرف بيـان فرائضـه وشرائعه إلاّ من إقراره وقوله وعمله .

فلا فصل بين الرسول ﷺ والقرآن ولا اتباع للقرآن بغير اتباع الرسول .

فإن القرآن قد أُنزل وحُفظ ليعمل به .

ولا نعرف كيف نعمل بغير بيان مَنْ أُنزل عليه

وقد كـانت عائشة رضـى الله عنها ذات مـعرفةٍ بالرسول وفـقهٍ بالقرآن حيث قالت : « كان خلقه القرآن »

وكان الشـافعى رضـى الله عنـه إماماٍ من أئمـة المسلميـن حيث قال:

كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن .

قال الله تعالى :

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ ﴾

(النساء : ١٠٥)

وقال الله تعالى :

﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ (النحل : ٦٤)

وقال الله تعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾

(النحل : ٤٤)

ولهـذا قال الرسـول ﷺ « ألا إنِّى أوتيت القرآن ومـثله معـه » يعنى السنة .

والسنة أيضـا تنزل عليـه بالوحى كـمـا ينزل القـرآن إلا أنهـا

لا تُتْلَىَ كما يُتْلَى القرآن »

فَحُفِظَ بذلك القرآن حفظان

حفظٌ لكلماته وآياته ، وحفظٌ لبيانه وسبيل اتباعه

فَتَحَقَّقَ بذلكَ وعْدُ الله لرسوله

حيث قال : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۝١٧ ﴾ (القيامة : ١٧)

وقال : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ۝١٩ ﴾ (القيامة : ١٩)

وتحققت الكفالة المطلقة بحفظ الذكر بلاغاً للناس وإعذاراً وإنذاراً :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩ ﴾ (الحجر : ٩)

في روضة القرآن

الرسول مبلغ عن ربه

٦ - الرسول مبلغ عن ربه :

﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ .. ﴾ (المائدة : ٦٧)

يقول الله تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة وآمراً له بابلاغ جميع ما أرسله الله به ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ... ﴾

وق امتثل ﷺ ذلك وقام به أتمّ قيام .

قال البخارى عند تفسير هذه الآية :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : من حدثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل عليه فقد كذب وفى الصحيحين عنها أيضا أنها قالت : لو كان محمد ﷺ كاتماً شيئا من القرآن لكتم هذه الآية :

﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ﴾ (الأحزاب : ٣٧)

وقال البخارى : قال الزُّهرى من الله الرسالة ، وعلى الرسول البلاغ ، وعلينا التسليم وقد شهدت له أمته بإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة .

واستنطقهم بذلك فى أعظم المحافل فى خطبته يوم حجة الوداع : كما ثبت فى صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته يومئذ « أيها الناس إنكم مسئولون

عنّى فما أنتم قائلون » ؟

قالوا : نشهد أنك قد بلّغت وأديت ونصحت .

فجعل يرفع اصبعه إلى السماء وينكسها إليهم ويقول « اللهم هل بلّغت » « وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته » يعنى إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته .

إن الرسول ﷺ ـ وهو يبلّغ ما انُزل اليه من ربه ـ يواجه بهذا الحق من ربه ما استحوذ على الناس من إيمان بالباطل وكفر بالله وما جاء أحدٌ بمثل ما جاء به الرسول ﷺ إلا عُودى كما قال ورقةُ بن نوفل للرسول ﷺ فى بداية بعثته

بل قال له : « يا ليتنى أكون حيًا حين يخرجك قومك » ؟

فقال الرسول ﷺ متُعَجّبًا « أو مخرجىّ هم » ؟

عداوة من أقرب الناس إليه وأعرفهم به ، وهم الذين لبث فيهم عمرًا من قبل أن يبعث . وقد أجمعوا على انه الصادق الذى لا يكذب الأمين الذى لا يخون .

وقد تحقق ما قاله ورقة من عداوة وصدٍّ ومكرٍ وكيد

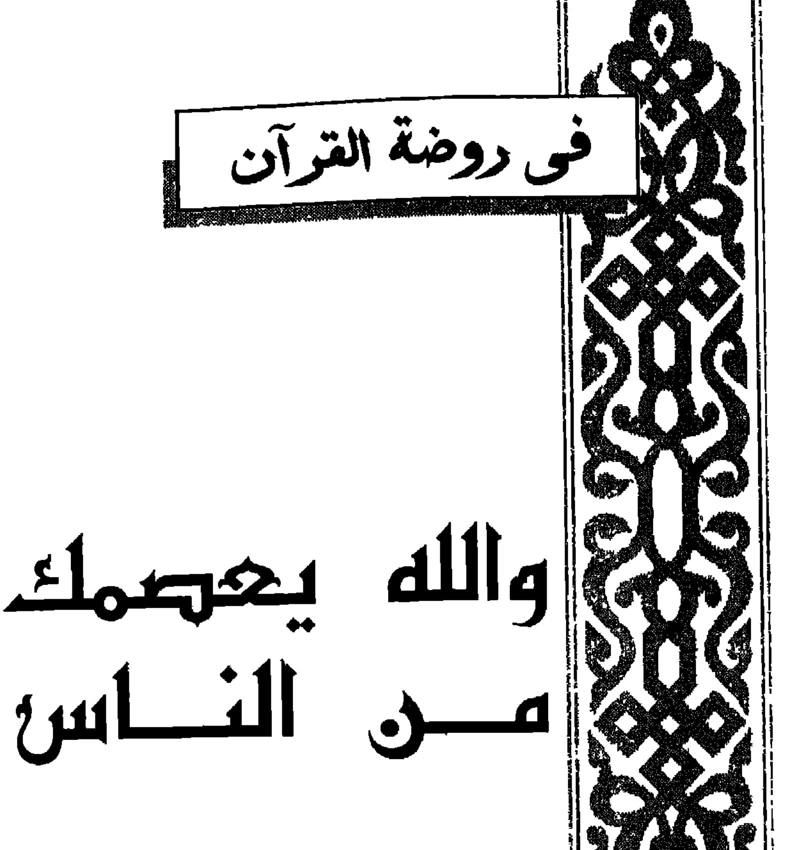
ولم يقل ورقةُ ذلك من عند نفسهِ بل بما عرَفهُ من سنة الله فى الأنبياء من قبل .

وإذا كنا نقرأ تفصيل ذلك كلّه فى سيرة الرسول ﷺ منذ بعثته إلى أن لقى ربّه .

فإننا فى حاجةٍ ماسةٍ أن نرى الرسول ﷺ فى القرآن ونرى القرآن فيه .

ولست أرى أن الهداية إلى الحقّ وإلى طريق مستقيم تتم بغير اتباع هذا السبيل أن نرى الرسول فى القرآن ونرى القرآن فيه وذلك ما تضمنته الآية الكريمة :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ (الشورى : ٥٢)



فى روضة القرآن

والله يعصمك من الناس

٧ - والله يعصمك من الناس

اى بلّغ انت رسالتى وانا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم فلا تخف ولا تحزن فلن يصل إليك أحدٌ منهم بسوء يؤذيك .

ما أثر ذلك وما دلالته ؟

أما بالنسبة للرسول ﷺ فقد صَرَفَ حُجَّابَه وقال « انصرفوا فقد عصمنى الله » .

وكم وقعت من بعد ذلك محاولات من ألدّ الأعداء فما تمكن أحدٌ من ايصال أذى إليه أو إيقاع شرٌ به بل كفاه الله وحماه حتى اظهر دينه وأتم نعمته وأما دلالة ذلك لمن أحسن التدبر أن يوقن أن من حفظه الله لا يُضَيَّع وأن من يطلب الحفظ من ربّه عليه أن يحفظ الله فى نفسه بحسن الاستجابة له ولرسوله كما قال الرسول ﷺ لابن عباس رضى الله عنهما وهو آنذاك غلام « احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ..»



حفظ ومؤانسة

٨ - حفظ ومؤانسة

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾ (الطور : ٤٨ ، ٤٩)

مرتبة للرسول ﷺ لم يبلغها قطُّ أى إنسان

« فإنك باعيننا »

أىُّ إعزازٍ وأىُّ انس وأى رعاية وأى حفظ بل وأى مكانة وأى حبٍّ اعظم من ذلك .

قال الله له ذلك وهو يتحدث عن عناد الكفار ومكابرتهم ويتجه بالخطاب إلى رسوله ﷺ .

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾ ﴾

(الطور : ٤٥ ـ ٤٨)

هكذا يُعطى الله نبيَّه زاد التحمل والصبر بل سبيل الفوز والنصر .

﴿ وسبح بحمد ربك حيت تقوم . ومن الليل فسبحه وادبار النجوم ﴾ .

تسبيح وتحميد آناء الليل وأطراف النهار وصلةٌ دائمة بمن

لا يعجزه من شئ فى الأرض ولا فى السماء

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً (٥) إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً (٦) إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً (٧) وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً (٨) رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً (٩) وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً (١٠) وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُوْلِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً (١١) ﴾ (المزمن : ١ ـ ١١)

بدأ هنا بالأمر بالتزود من الزاد الذى يعين على التحمل والصبر ويُطلب به من الله الفوز والنصر . وما عند الله لا يُطلب إلا بطاعته ..

﴿ قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلا . أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴾ .

قال الله له ذلك وهو يناديه نداء ايقاظ وملاطفة يتناسب مع الحال الذى كان ﷺ « يا أيها المزّمل » المزمل : النائم كما قال ابن عباس أو المزمل فى ثيابه كما قال قتادة .

« قم » أمر من الله لا يعنى إيقاظه ﷺ من نومٍ أو فراش فحسب بل يعنى ما هو أعظم واكبر من ذلك يعنى الاعداد لمهمةً كبرى بالوسائل المناسبة لها .

قيام الليل ، قيامه للصلاة وترتيل القرآن .

ذاك هو الاعداد للقيام بالحق الذى نَزَل به وأُنْزِلَ القرآن وهنا

نستطيع أن نرى الرسول فى القرآن وأن نرى القرآن فيه نرى الرسول وهو قائم بما أمر به نراه قرآنياً يُحقق بالقرآن ذاته ورسالته ونرى القرآن مُسَطَّرا فى قلبه رَطْباً بلسانه خُلُقا فى سعيه وعمله . روى الامام احمد فى مسنده عن سعيد بن هشام.. انه أتى ابن عباس رضى الله عنهما فساله عن الْوِتْر فقال : الا انبئك باعلم اهل الارض بوتر رسول الله ﷺ ؟

قال : نعم.

قال : ائت عائشة فَسَلْها ، ثم ارجع فاخبرنى بِردِّها عليك. يقول سعيد بن هشام : قلت : يا أم المؤمنين انبئينى عن خُلُق رسول الله ﷺ قالت : ألست تقرأ القرآن ؟

قلت : بلى .

قالت : فإن خلق رسول الله ﷺ كان القرآن .

فهممت أن اقوم ، ثم بَدَا لى قيام رسول الله ﷺ .

قلت : يا أم المؤمنين ، انبئينى عن قيام رسول الله ﷺ .

قالت : ألست تقرأ هذه السورة « يا أيها المزمل » ؟

قلت : بلى

قالت : فإن الله افترض قيام الليل فى اول هذه السورة .

فقام رسول الله ﷺ واصحابه حَوْلاً حتى انتفخت اقدامُهم وأمسك الله ختامها فى السماء اثنى عشر شهرا .

ثم انزل التخفيف فى آخر هذه السورة ، فصار قيام الليل تطوعا من بعد فريضة .

فهممت أن أقوم .

ثم بَدَا لي وتر رسول الله ﷺ .

قالت : كنا نعد له سواكه وطهوره ، فيبعثه الله كما شاء أن يبعثه من الليل فيتسوك ، ثم يتوضأ ، ثم يصلى ثمان ركعات لا يَجْلِسُ فيهن إلا عند الثامنة فيجلس ويذكر ربَّه تعالى ويدعو ، ثم ينهض وما يُسلم .

ثم يقوم ليصلى التاسعة ثم يقعد فيذكر الله وحده ، ثم يدعوه ثم يسلم تسليما يسمعنا .

ثم يصلى ركعتين وهو جالس بعدما يُسلم .

فتلك إحدى عشرة ركعة يا بنى .

فلما أسنَّ رسولُ الله ﷺ ـ وأخَذَ اللحم أوْتَرَ بسبع ثم صلى ركعتين وهو جالس بعدما يسلم ، فتلك تسع يا بنى

وكان رسولُ الله ﷺ إذا صلَّى صلاةً أحبَّ أن يداوم عليها وكان إذا شغله عن قيام الليل نومٌ أو وَجَعٌ أو مرض صلَّى من نهار اثنتى عشرة ركعة .

ولا أعلم نبى الله ﷺ ـ قرأ القرآن كلَّه فى ليلة حتى أصبح ولا صام شهرًا كاملا غير رمضان ..

ذاك هو الرسول ﷺ بالقرآن قائما به كما أمِر مُرتِّلاً وتاليا يحيى به ليله ويذكر ربه والناس نيام .

وياله من سكون ونور أن يُتلى القرآن بالليل وفى الليل حضورٌ وشهود سكون للنفس ونور للقلب . وزادٌ للمؤمن ـ فى تحمل

أعباء الحياة - أىُّ زاد ﴿ إن ناشئةَ اللَّيل هى أشدُّ وطئاً وأقوم قيلا ﴾ .

للذكر فيها حلاوة ، وللصلاة راحةٌ وخشوع ، وللمناجاة أُنْسٌ ونور قد لا يجدها الإنسان فى صلاة النهار ﴿ إن لك فى النهار سبحا طويلا ﴾ للنهار مشاغلةٌ وقضاياه . وفى الليل سكونٌ وأنس وحضور قلب ومناجاة ﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ﴾ ذكر خالص منقطع عن كل ما عدا الله . وهذا ما كان من رسول الله.

أما وقد أخذ الرسول زاده من طاعة وذكر وعبادة .

فليتوكل على الله وحده وقد أخذ بأسباب التوكل عليه .

﴿ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ⑨ ﴾

(المزمل : ٩)

ومن تدبر التناسب بين هذه الآية وما جاء بعدها من قوله :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ⑩ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً ⑪ ﴾ (المزمل : ١٠ ، ١١)

علم أن الصبر الذى أُمر الرسول به فى مواجهة المكذبين المتطاولين هو صبر الإعذار والإنذار بل صبْر الرحمة بأولئك علَّهم يتوبون ويرجعون ولذلك قال ﴿ واهجرهم هجراً جميلا ﴾ .

ولا شك أن الهجر الجميل مع تطاول المكذبين يحتاج إلى الصبر الجميل الذى لا يكون إلا بالله ﴿ رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو﴾ .

وهذا ما كان من رسـول الله وما رأينا نتائجه فيـمن تحوّل بعد عداوة إلى ولىٍّ حميم .

اصبر وَخلِّ بينى وبين من يكذبونك فأنا كفيلٌ بهم .

دعهم يكذِّبُونك واصبر على ما يقولون واهجرهم هجراً جميلا .

الهجر الجـميل يحتاج إلى صـبرٍ جميل مطمـئن واثق موصول بالله لا يصاحبه قلق ولا سخط وعنـدئذ يكون الهجر الجميل ـ لمن أساء ـ دفعاً بالتى هى أحسن ومن كان صبره لله وبالله عرف سنن الله فى خلقه .

وكان صـبرُه صَبْـرَ الواثق المطمئن أن لله وحده لا لأحـدٍ سواه عاقبه الأمور

﴿ ربُّ المشرق والمغرب لا إله إلاَّ هو فاتخذه وكيلا ﴾

هكذا نرى القرآن حـياة فى صمـيم حيـاة الرسول فى يقظة أو نوم فى سفر أو حضر فى ليل أو نهـار نراه موحًى به إليه ما شَيأ أو قاعدا مُفطِرًا أو صائما مُحَارِبًا أو مسالما مُزّمّلا أو مُدّثرا .

نراه فى جَميع الأحوال حياةً فى صميم حياة الرسول ﷺ .

ونرى الرسول ﷺ يمـشى بنوره فى الناس يتلو ويعلّم ويزكى ويحكم بين الناس بما أراه الله ويبلّغ ما أُنزل إليه من ربِّه .

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ① قُمْ فَأَنذِرْ ② وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ③ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ④ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⑤ وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ⑥ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ⑦ ﴾

(المدثر : ١ ـ ٧)

يُنادىَ الرسول وهو علـى هذه الحالة « يا أيها المدثر » مـلاطفة

وموانسة وتسرية بعد عناء واجهاد . روى البخارى عن جابر بن عبدالله وهو يحدّث عن رسول الله ﷺ قال :

جاورت بحراء فلما قضيت جوارى هبطت فنُوديتُ

فنظرت عن يمينى فلم أر شيئاً . ونظرت عن شمالى فلم أر شيئا .

ونظرت أمامى فلم أر شيئا ، ونظرت خلفى فلم أر شيئا .

فرفعت رأسى فرأيت شيئا فأتيت خديجة فقلت « دثّرونى وصبّوا على ماءً بارداً قال : فدثرونى وصبّوا على ماءً باردًا قال : فنزلت ﴿ يا أيها المدثر . قم فانذر . وربك فكبر ﴾ .

وقد رواه مسلم عن أبى سلمة قال : اخبرنى جابر بن عبد الله انه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحى ، فقال فى حديثه : فبيناً أنا أمشى إذ سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت بصرى قِبَلَ السماء . فإذا الملكَ الذى جاءنى بحراء قاعدٌ على كرسى بين السماء والارض .

فجثيت منه حتى هويتُ إلى الأرض فجئت إلى أهلى فقلت : زملونى فدثرونى ، فانزل الله ﴿ يا أيها المدثر ، قم فانذر .. إلى والرجز فاهجر ﴾ .

قال أبو سلمة : والرجز الأوثان .

وإذا تدبرنا ما رواه الطبرانى عن ابن عباس فى سبب النزول استطعنا أن نَعرف لماذا أمِرَ الرسول ﷺ بالصّبر فى قوله تعالى ﴿ ولربك فاصبر ﴾

إذ قال ابن عباس رضى الله عنهما « إن الوليد بن المغيرة صنع لقريش طعاما فلما أكلوا منه قال : ما تقولون فى هذا الرجل ؟

قال بعضهم : ساحر . وقال بعضهم ليس بساحر

وقال بعضهم : كاهن . وقال بعضهم ليس بكاهن

وقال بعضهم : شاعر . وقال بعضهم ليس بشاعر

وقال بعضهم : بل سحر يؤثر . فأجمع رأيهم على انه سحر يؤثر .

فبلغ ذلك النبى ﷺ ـ فحزن وقنع رأسه ، وتدثر .

فأنزل الله عز وجل :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) ﴾

(المدثر : ١ ـ ٧)

وأيًا ما كان السبب فإن للآيات دلالتها فى مخاطبة الرسول وما يصدع به وما يكون عليه .

وهى دلالات لا يُتْركُ للعقل منفرداً أن يستنبطها

وإنما هى آيات بينات تُرىَ فى واقع يُحسُّ ويُشاهد

والرسول ﷺ وهو محور الاحداث وجوهرها وجبريل أمين السماء روّاح غدَّاء يتنزل بامر ربه فى أيه لحظة من ليل أو نهار.

والمجمعون على الكذب والمكر والصد والكيد لا يحسون بما هو واقع ولا يبصرون .

ولو كانت لهم قلوب يعقلون بها لأيقنوا ـ والقرآن يتلى عليهم ـ أن الرسول ليس مُجَرَّداً عن قوة حتى يتآمر عليه

ولو كانت لهم آذان يسمعون بها لكان منهم حسن تدبر وسماع ولما وقع منهم أن يتواصوا فيما بينهم :

﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ ﴾ (فصلت : ٢٦)

ولو كانت لهم اعين يبـصرون بها لرأوا الرسول كمـا يعرفون صادقا أمينا لم يكذب عليهم قط فكيف يكذب على الله .

ولكنه العـقاب على الجـحود : « وجـحـدوا بها واسـتيـقنتهـا أنفسهم ظلما وعلوا »

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) ﴾ (الأنعام : ٣٣)

ويكفى أن تتلي عليهم هذه الآية لو كان يشـعرون . وأن يعلموا أن الله يعلم ما يُحْزِن نبيه . وفى علمه بذلك تهديد لهم ووعيد وهم اعرف الناس بلغة العرب ودلالتها .

فكيف اذا سمعوا مـا ترتب على قولهم فى القرآن ﴿ إن هذا إلاَّ سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر ﴾ .

والرسول يؤمر بالصبر ويقـرعهم بما نزل من وعيد لِقائلهم :

﴿ إن هذا إلا قول البشر ﴾

﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ (٢٦) وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ (٢٧) لا تُبْقِي وَلا تَذَرُ (٢٨) لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ (٢٩) ﴾ (المدثر : ٢٦ ـ ٢٩)

آيات وآيات يصدع بها الرسول ويقرعهم بها وهم فى طغيانهم

يعمهون . آيات لها سلطانها ودلالتها على قدر قائلها .

إن الوعيد من بشر محدود بحدود ضعفه وأجله وقد يموت قبل أن ينفذ وعيده ولكن الوعيد من الحى الذى لا يموت .

الوعيد ممن له القوة جميعا والعزة جميعا .

ترى لكلمة الوعيد منه ـ سبحانه ـ سلطانا وبرهانا

فمن ذا الذى يقول من البشر :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ (القمر : ٤٥)

وانظر لسلطان الايات وهى تلقى على الرســول ـ وهم يكيدون له ويتآمرون .

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) ﴾

(الزخرف : ٤١ ـ ٤٤)

كلام عزيز له قوة وسلطان

لا يمكن لبشر أن ينطق به وعيداً لعَدُوٍّ ووعداً لنبى .

وحامل هذا الوحــى للرسول وهو ملك واحد مــن ملائكة الله لو اذن له بهلاكهم لدمرهم تدمــيراً وهذه الآيات تتلى عليهم وتذكرهم أن شرفهم فيمــا جاءهم من ربِّهم ولكنَّ كثيراً من الناس يَوَدون أن يعيــشوا فى أرض الله بلا شرف ﴿ وإنه لذكر لَكَ ولقـومك ﴾ فمن أبى هذا الذكر عاش فى دنياه بلا شــرف « وسوف تسألون » فَبِمَ يُجيبون ؟ وبم يجيب مَنْ يُعرضون ويَصُدُّون ؟

﴿ أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ (المؤمنون : ١٠٥ ـ ١١١)

كلام له نور وسلطان ارأيت بم يجيبون حين يُسألون . عُدْنا وحسرة « حتَّى إذا جاء احدهم الموت قال ربِّ ارجعون » من بداية مقدمات الموت ومجيئه « ربِّ ارجعون » لانهم رأوا ما هم إليه صائرون . فإذا القوا فى جهنم قالوا « ربنا اخرجنا منها فإن عُدْناَ فانا ظالمون » فيجابون « اخسئوا فيها ولا تكلمون »

وترى النتائج لهم ولمن سخروا بهم وكانوا منهم يستهزؤن ويضحكون « إنى جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون »

كلام عزيز له قوة وسلطان .

وانظر كيف يوَبخ هؤلاء ومَنْ على شاكلتهم :

﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ ﴾

(المؤمنون : ١١٢ ـ ١١٦)

هذه الآيات تُتْلى على من كان له قلب فى اى زمان او مكان فلا

يحتاج بعدها إلى سلطان دليل أو برهان .

والذى يلفت النظر أن الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يُخاطب بهذه الآيات بينهم فى مكة يجابهم بالآيات وفيها تهديد لهم ووعيد.

وفيها للرسول تثبيت وتسديد . وليس مع الرسول سوى القرآن يسفه به أحلامهم ويعيب الهتهم وهم يتوهمون أنهم على البطش قادرون . مع أنهم أمام سلطان القرآن وحده عاجزون مقهورون وهم يرون أن الرسول والذين معه مع ما يلاقون صابرون مستمسكون . يزيدون ولا ينقصون

﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٣) وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) ﴾ (الزخرف : ٤٣ ، ٤٤)

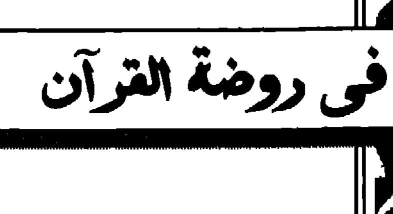
يا لله ذَاكَ هو القرآن يُرى فى الرسول ويُرى الرسول فى القرآن معجزةٌ باقية لا ينطفئ لها نور ولا يُرجى بعدها للحق حجةٌ أو برهان أرأيت أن دعوة الرسول أن يصبر على أذى المشركين هى دعوة من قادر على الأخْذ الاليم والبطش الشدى وهو مَنْ أمرَ الرسولُ أن يصبر لَهُ وبه « ولربك فاصبر » سبحانه فى ملكوته وعلاه : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ ﴾ (النحل : ١٢٧)

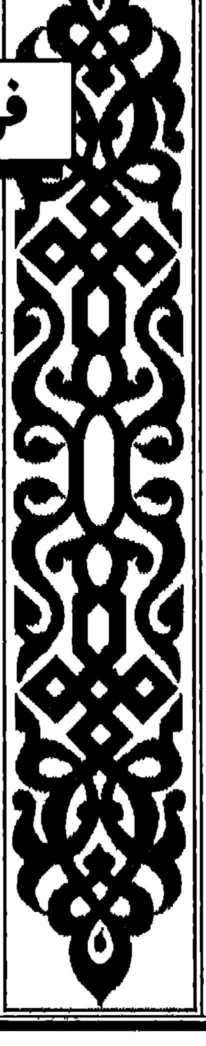
القرآن الكريم يتنزل - والرسول ﷺ - يؤمر أن يصبر على ما يلاقية من صدٍّ وكيدٍ وكفرٍ وجحود . يصبر على سفاهة السفهاء وجحود المستهزئين .

ولكن هذا الصبر من رسول الله لم يكن إمساكا عن الصدع بما

امر به وتبليغ ما أنزل إليه بل كان آية ودلالة على الثبات على الحق والاستمساك به وأن العاقبة له . والقرآن الكريم يُنذرهم ويخبرهم أن الله يعصم نبيّه ويحفظه مع إصرارهم على الكيد له وجحود ما جاء به . ليلفت أنظارهم للفرار إلى الله وحده إذْ لا مقدرة لهم على تخويف رسوله أو إطفاء نوره .

ولا شئ سوى القرآن يُتلْى عليهم وينذرهم . ويهدى المؤمنين ويبشرهم . لاشئ سوى القرآن يُتْلَى على هؤلاء واؤلئك . فيزداد به المؤمنون إيمانا ويزداد الظالمون خسرانا .





ثبات وقوة

١٠ - ثبات وقوة :

إن القرآن الكريم قد عمل عمله فى ذات الرسول أولا . وأن ما حققه القرآن فى خاصة نفسه - وهو يتلقاه - كان أعظم مما يتصوره كثيرٌ من الناس ذلك أن الرسول ﷺ قد علِمَ منذ نُودى « إقرأ » أنه يتلقى القرآن من لدن حكيم عليم .

﴿ وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) ﴾ (الشعراء : ١٩٢)

فكانت الصلةُ بينه وبين أمين السماء - وهو ينزل بكلمات الله - مصدر قوة وعزة ويقين بنصر الله .

فلم تهنَ قط عزيمتُه ولم تضعف إرادتُه أو مروءته .

ولم يخش - في سخائه - من ذى العرش إقلالا .

ولا خاف - فى البأساء والضراء وحين البأس - من الله خُذْلانا إنه قد عرف منذ نودى « اقرأ » أنه رسولٌ . يُعَبِّر فى كلِّ شأنٍ عن صفات من أرسله فهو عزيزٌ يستمد عزته من القوى العزيز .

رحيمٌ يستمد رحمته من الرحمن الرحيم .

مرسلٌ بالهدى ودين الحق . والله هو الحق ، وهو يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم . من هنا لم تَستطع جميعُ الوسائل أن تحول بينه وبين ما أُرسل له وما بُعث من أجله .

إنه قد انفعل بالوحى انفعال من رأى القوة وشاهدها .

ومن عرف الرحمة واوتيها .

ومن اتصل بالله فاغناه الله عَمَّن سواه

إنه قد آمن بما أُرسل به قبل أن يؤمن الناس .

وعرف قَدْرَ ما أُرسل به لأنه عرف قدر من ارسله .

فلا غرابة أن نراه ﷺ يقول لعمه « والله لو وَضَعُوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن اترك هذا الأمر ما فعلت حتَّى يُظهره الله أو أهلك دونه »

قال ذلك : عندما قال له عمُّه : يا ابن أخى إن القوم جاؤونى فقالوا لى كذا فابق على نفسك ولا تحمِّلنى منَ الأمر ما لا أُطيق .

فظنَّ الرسول ﷺ أنَّ عمَّهُ خَاذِلهُ وقال لهَ ما لم يجر على لسانٍ قط « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ...... »

دلالة على أن جميع المحاولات لو بلغت هذا المبلغ لن تجعله يترك هذا الأمر . ثم بكى وولَّى .

فقال أبو طالب أقبل يا ابن أخى .

فاقبل عليه فقال : اذهب فقل ما أحببت والله لا أُسلمك .

ولا غرابة أن يعرض عليه موفد قريش ما يعرضه فتكون اجابته قرآناً يُتْلى على مُوفَدِ قريش ولا يزيد .

ذلك أن قريشا قد اجتمعت يوماً فقالوا : انظرو أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر .

فليات هذا الرجل الذى فَرَّق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وعاب ديننا .

فليكلِّمْهُ ولينْظُرْ ماذا يُردُّ عليه .

فقالوا : ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة .

قالوا : أنت يا أبا الوليد .

فأتاه فقال : يا محمد أنت خيرٌ أم عبد الله ؟

أنت خيرٌ أم عبد المطلب ؟

فسكت رسول الله ﷺ .

قال : فإن كنت تَزْعُمُ أن هؤلاء خير منك فـقد عَبَدوُا الآلهة التى عِبْتَ وإن كنت تزعم أنك خيرٌ منهم فتكلم حتى نسمع قولك .

إنا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومك منك .

فرَّقت جـماعـتنا وشتت أمـرنا ، وعِبْتَ ديننـا ، وفضحـتنا فى العرب حـتى لقد طار فيـهم أن فى قريش سَاحـراً وأن فى قريش كاهناً والله مـا تنتظر إلا مثل صيـحة الحبلى أنَ يقـوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نَتَفَانَى .

أيهـا الرجل إن كان بك الحـاجـة جمـعنا لك حـتى تكون أغنى قريش رجلا واحداً .

وإن كان إنما بك الباءة فاختـر أى نساء قريش شئت فَلْنُزَوِّجْكَ عشرا فقال رسول الله ﷺ فرغت .

قال نعم

فقال رسول الله ﷺ

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ (١) تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢) كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا

لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ (٥) ﴾

حتى بلغ : قوله تعالى :﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) ﴾

(الآيات من سورة فصلت : ١ ـ ١٣)

قال عتبة حسبُك حسبُك ما عندك غير هذا ؟

فقال رسول الله ﷺ : لا

فرجع عتبة إلى قريش .

فقالوا : ما وراءك

قال : ما تركت شيئا أرى أنكم تكلّمون به إلا كلمته .

قالوا : فهل أجابك .

قال : والذى نَصَبَها بنية[1] ما فهمت شيئا مما قاله غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ..

إن الرسول ﷺ لم يجب عتبة بشئ فيما سأل عنه أو أساء فيه بغير القرآن .

وقد جاء فيما روى : إنم عتبة عندما انتهى الرسول ﷺ فى تلاوته إلى قوله تعالى ﴿ فإن أعرضوا فَقُلْ أنذرتكم صاعقةً مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ أرْعَدَ وقَفَّ شعرهُ ، وأمسك على فم الرسول ﷺ بيده وناشده بالرحم أن يُمسك .. وقال حين فارقه « والله لقد

(١) يقصد الكعبة : يقسم بها

سمعت شيئاً ما هو بالشّعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . ولقد ظننت أن صاعقة العذاب على راسى » .

وأنه عندما انصرف إلى قريش فى ناديها :

قالوا : « والله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى مضى به من عندكم » .

ثم قالوا : ما وراءك أبا الوليد ؟

قال : والله لقد سمعت كلاما منْ محمد ما سمعتُ مثلَه قط .

والله ما هو بالشعر ولا بالكهانَة .

فاطيعونى فى هذه وأنْزِلُوهَا بِى . خلُّوا محمداً وشانه واعتزلوه فوالله ليكونن لما سمعتُ منَ كلامه نبأ .

فإن أصابته العرب كُفيتُمُوه بأيدى غيركم .

وإن كان ملكاً أو نَبِيّاً كنتم أسعدَ الناس به .

لان مُلكه مُلككم وشرفه شرفكم .

فقالوا : هيهات ، سَحَرَكَ محمد يا أبا الوليد .

وقال : هذا رأيى لكم ، فاصنعوا ما شئتم .

ويُرْوَى أن عتبة عندما رجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم قال أبو جهل : يا معشر قريش والله ما نرى عتبة إلا قد صبأ إلى محمد وأعجبه طعامه ، وماذاك إلا من حاجة أصابته .

فانطلقوا بنا إليه . فانطلقوا إليه .

فقال أبو جهل : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك صبات إلى محمد

وأعجبك طعامه فإن كان بك حـاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد . فغضب عبتة وأقسم الا يكلّمَ محمداً ابدا .

وقال : والله لقد علمـتم انى من اكثر قريش مَـالاً . ولكنى أتيته وقصصت عليه القصة فأجابنى بشئ والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحـر وقرأ السـورة إلى قوله ﴿ فـإن أعرضوا فـقل انذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ .

فامسكت بفمه وناشدته الرحم أن يكُف .

وقد علمتم أن مُحمداً إذا قال شيئاً لم يكْذِبْ ، فخشيت أن ينزل بكم العذاب .

ذاك هو القرآن والرسول يتلوه .

لم يجب الرسول بشئ غيره ولم يُعـالج ما هم عليه بامرٍ سواه القرآن . والرسول . ويالـيتنا ندرك هذه الحقيقـة ليكون القرآن لنا منهـجا وخلقـا فلا نـدفع بالسيـئة السـيـئة وإنما ندفع بالحـسنة السيئة:

﴿ وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ (فصلت : ٣٤)

يا ليـتنا نعتـصم بالقرآن فنتـعلم كيف نخـاطب بالحق من آمن بالباطل وأن نتـقى الله فيمن عصى الله فينا فننـتصر لله لا لأهوائنا فما عاقبتَ من عصى الله فيك بمثل ان تـتقى الله فيه . يا ليتنا نحيا بفقه القرآن فلا نؤخذ بعيداً عن الحق بإغراء زينة أو متاع .

لقد رأينا مـا عَرَضَه بن ربيعة على رسـول الله ﷺ وما نطق به

من هُراء وأهواء لم يَرُدَّ الرسول ﷺ على شئ من ذلك بكلمة واحدة بعيداً عن القرآن وقد جاء الردُّ بالقرآن قاطعاً مُزْهقاً لكلِّ باطل . بلاغاً وانذاراً للعالمين .

جاء القرآن بالحق الذى لا يستغنى عنه إنسان .

والذى سمعه عتبةُ فعاد إلى نادى قريش بغير الوجه الذى ذهب به وقال فيما قال « والله ليكونن لما سمعت من كلامه نبأ» وقد كان عُتْبَةُ قد عَرَضَ على رسول الله ﷺ فيما عرض المال والنّساءَ والمُلكَ .

إغراء لمن تعلّق بدنياه . بها يُستَخفُّ من لم يُوقن بيوم الجزاء وبها يُستدرج من تسوء عقباه .

أمورٌ يَعْرِضها عتبةُ على رسول الله وهى اقصى ما يتمناه من رضى بالحياة الدنيا واطمانَّ بها . ولا يلتفت إليها أو يؤخذ بها من كان يرجو الله والدار الآخرة ـ فما بالك برسول الله ﷺ

ولا تسل عن قيمة الإنسان عندما ينحصر فى هذه الدائرة الضيقة ولا يرى نفسه إلاَّ بها . يُصبْح عبداً لهذه الأعراض تملكه وإن تَوَهَّم أنَّه يملكها .

وقد انحصر المبطلون فى ذلك فلم يَرَوْا من مقومات عظمة الإنسان غير ذلك .

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) ﴾

(الزخرف : ٣٠ ، ٣١)

ما مقومات العظمة لمن يرونه أحق بتنزيل القرآن عليه ؟ شاةٌ أو بعير يزدان بها عظيمٌ فى مكة أو الطائف .

وما دَرَوْا أن الإنسان لا يَعْظُم بأعراضٍ خارجة عنه .

وإنما يَعْظُمُ بصفات قائمة فيه .

لا يعظم الإنسان حين يقال ذو مالٍ كثير .

وإنما يُعظم عندما يكون ذا خلق عظيم .

وهم عندما قالوا « لولا نُزِّلَ هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »

إنما يعنون أكثرَهم مَالاً فى مكة أو الطائف .

والرسل إنما جاؤا ليصلوا الإنسان بموطن عزته ويرتفعوا به من الخلود إلى الأرض فلا يزل لصنم أو حجر أو شجر أو بشر أو يسجد لشمس أو قمر يعزُّ الإنسان ويسمو عندما يخرج من عبادة العباد إلى عبادة الله من عبادة المخلوق إلى عبادة الخلق .

وهذا ما جاءت به الرسل جميعا :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ۝ ﴾ (الأنبياء : ٢٥)

وهذا ما تلاه الرسول ﷺ على عتبة ـ من صَدْرِ سورة فصلت ـ فيما تلاه :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ﴾ (فصلت : ٦)

ومن عرف ذلك أخضع كل شئ من أعراض الحياة لهذه الحقيقة .

حقيقة انه عبدٌ لله لا لشئ سواه .

وهذا ما أمر به الرسول وما دعا إليه وما انتصر به .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ ﴿٣٦﴾ ﴾

(الرعد : ٣٦)

تلك هى حكمة الخلق وغاية الوجود .

إذا جهلها الإنسان صرعته الأهواء والشهوات .

واستحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر الله .

لقد قالت قريش فى رسول الله ما قالت وقد عبّر مُوفَدُ قريش بما يدور فى نفوسهم فأعرض ﷺ عنهم وصدع بما أمر .

ورأيناه ﷺ يتلو عليهم ما خُوطبَ به .

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

(الحجر : ٩٤ ـ ٩٦)

وما يقولونه وما يفعلونه ليس بخاف على الله ولا محجوبا عنه وإن تناجوا به

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾

(الحجر : ٩٧ ـ ٩٩)

﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ﴾ .

ولا يخفى ما يدل عليه قول الله ﴿ولقد نعلم﴾ وما يترتب عليه.

أمـا بالنسـبة لرسـول الله صلى الله عليـه وسلم فـإنه التكريم والتـأييد والحـفاوة والمـؤانسة من الله وهو يخـاطب نبـيه بقـوله ﴿ولقـد نعلم أنك يضيق صـدرك ﴾ كمـا يخاطبـه بقوله ﴿ فـإنك بأعيننا﴾ .

ويالهـا من قوة يسـتمـدها الرسول وهو يُخـاطب بهذا الـقول الكريم من ذى قوة عند ذى العرش مكين .

والقول يسند إلى جبريل باعـتبار نزوله به ﴿ إنه لقول رسول كريم ذى قوة عند ذى العرش مكين ﴾ .

ولا تخفى دلالة ذلك على أولى الألباب .

وأما بالنسبـة للآخرين فإن فيه دعوة لهم أن يتـوبوا ويرجعوا فانهم ليسـوا بسابقين ولا معجزين . والله محـيط بما يقولون وما يفْعلون ومـن التسرية والتـسلية لرسـول الله ﷺ والإغراء لهم أن يتوبوا عما يقولون ما جاء فى قوله تعالى فى سورة فُصلت .

﴿ مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ (٤٣) ﴾ (فصلت : ٤٣)

إن ربك لذو مغفرة لمن تاب. وذو عقاب اليم لمن أدبر واستكبر لَسْتَ بِدْعاً من الرسل أن يُقال لك ما قـد قيل . فقد قيل للرسل من قبلك ما قيل لك :

﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ (الذاريات : ٥٢ ـ ٥٥)

فليمض الرسول فى سبيله والله يكفيه

وليأخذ زاده من الصلة بالله دون مبالاة بما يفعله هؤلاء :

﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ (الزمر : ٣٦ ، ٣٧)

أليس الله بكاف عبده ؟ والمراد رسول الله ﷺ

بلى : هو كاف عبده . فإن دخول همزة الانكار على كلمة النفى تفيد معنى اثباتٍ الكفاية وتقريرها . فالاستفهام للتقرير . او للنفى: ومعناه نفى النفى الذى دخل عليه ونفى النفى اثبات . وهو مبالغة فى الاثبات فمن ذا الذى يخيفه وما ذا يخيفه إذا كان الله معه .

« أليس الله بعزيز ذى انتقام » ؟ أى منيع الجناب لا يُضَامُ من استند إلى جنابه ولجأ إلى بابه

فإنه العزيز الذى لا أعز منه .

ولا أشدَّ انتقاما منه ممن كفر به وأشرك . وعاند رسوله ﷺ وكذب .

وهكذا نرى القرآن الكريم مع الرسول ﷺ فى وقائع وأحداث والروح الأمين ينزل به فيقرأ الرسول بقراءته ويتلوه كما أنزل عليه. إن أعدى أعداء رسول الله ﷺ يرى فيه قوةً وعزّة تُرْهَبُ وتُهاب وهو يتلو القرآن وليس من حوله قوةٌ أو عتاد .

وهذا ما كان من عتبة وهو يمسك على فم الرسول بيده

ويناشده الرحم أن يُمسك . وقال حين فارقه « لقد ظننتُ أن صاعقة العذاب على رأسى » .

إنه القرآن

كم هزم المسلمون وانتصر هذا الكتاب

وكم نال العدو من ديارهم ولم يستطع مغالبة آية منه .

إنه القرآن الذى أُخرجت به خيرُ أمة .

بقى وحُفظَ لتحيا به قلوب وتنعم نفوس .

كما تحَيا الأرض الطيبة بالغيث وتعطى عطاءها بإذن ربها ويآله من تشبيه يعبّر عن حقيقة ما بعث به الرسول ﷺ حيث قال ﷺ « مثلُ ما بَعَثَنى الله من الْهُدىَ والعلم كمثِل غيثٍ أصَابَ أرضاً..» فالغيثُ موجود وممدود ومَحفوظ .

وإنّك لترى الرسول ﷺ فى التشبيه لا ينفصل عن القرآن ولا ينفصل القرآن عنه لتعلم كيف تقرأ القرآن وكيف تهتدى به .

وأنت ترى ذلك فى وَاقع .

فما كان لك أن تسمع القرآن من جبريل دُونَ أن يتلوه عليك بشرٌ رسول وقد شاء الله أن يكون الهدى والنور للناس مقترناً ببعثة الرسول .

وأن تكون تلاوة القرآن من نبىٍّ أُمّى لم يقرأ من قبله من كتاب ولم يخطه بيمينه ليعرف على الدوام مالله من فضل ورحمة فى بعثه الرسول بالحق والهدى والنور .

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ (يونس : ٥٨)

فلا غرابة أن ترى المهابة فى الرسول وفيما يتلوه من الكتاب .

وأن ترى القوة والمتعة لمن اقتدى به واهتدى بهداه .

لأن الأمر كلّه لله ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فَمَالَهُ مِنْ نُور﴾.

وللغيث النازل من السماء هزّةٌ فى الأرض وحياة .

وللهدى والنور المنّزل على قلب الرسول تأثير وحياةٌ للنفوس أىُّ حياة .

﴿ اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٢٣) ﴾ (الزمر : ٢٣)

إن الترابط بين الرسول والقرآن أو بين الرسالة والرسول قائم فى كل ما تتلوه أو تسمعه من القرآن .

وكثيراً ما ترى صفاتٍ للقرآن يُوصف بها الرسول ﷺ من ذلك صفات : ذكْر ونور وبشير ونذير وهدى ورحمة وهذا الامتزاج فى الصفات .

يجعلنا نرى الرسول فى القرآن ونرى القرآن الكريم فيه .

فليس القرآن بالكتاب الذى يُقْرأ للمعرفة والثقافة وكفى .

وإنما هو الذكر الذى يُقْرأ ويرى ويشاهد عملا وخلقاً فى الحياة يُقْرأُ فى السطور .

ويسكن فى الصدور .

ويَعْمَلُ عَمَلَهُ فى القلوب نوراً وجلاءً ووجلاً وخشية .

لذلك كان لابد من تَعَهُّدِه فى وِرْدٍ يومى متصل

يُقرأ فيه القرآن الكريم بلا انقطاع فى مدة لا تزيد عن شهر ولا تقل عن ثلاثة أيام .

وإلاّ صَدَأت القلوبُ وران عليها .

وقد نبَّه لذلك رسول الله ﷺ حيث قال : « إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد . قيل فما جلاؤها ؟ قال : ذكر الله وتلاوة القرآن » .

ونحن فى تطهير أجسادنا ونظافتها . هل يمكن أن نقول تَطَهّرنَا بالامس وذلك يغنينا عن اليوم والغد ؟

أم أننا نداوم على الطهر ونغتسل مرات ومرات حتى لا يبقى شئ من درن . ومن عجائب القرآن - ولا تنقضى عجائبه - أنه لا يُملُّ ولا يخلق على كثرة الرد .

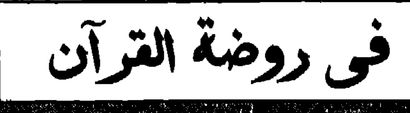
قيل لجعفر بن محمد الصادق : لم صار الشعر والخُطَبُ يُملُّ ما أُعيد منها والقرآن لا يُمل ؟

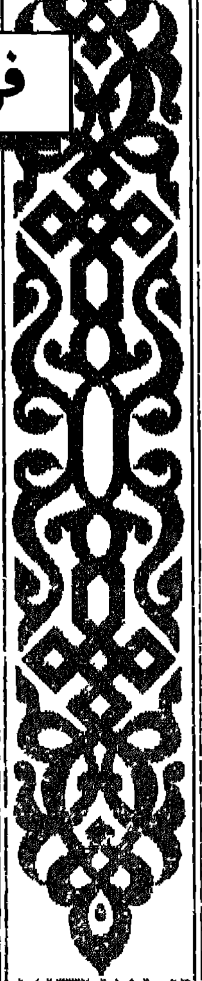
فقال : « لأن القرآن حُجَّةٌ على أهل الدهر الثانى .

كما أنه حجة على أهل الدهر الأول .

فكل طائفة تتلقاهُ غَضًّا جديرا .

ولأن كلَّ امرئ فى نفسه متى أعاده وفكَّر فيه تَلَقَّى منه فى كل مَّرة علوما غَضّةً ، وليس هذا كله فى الشعر والخطب » .





تعهد ومثابرة

١٠ - تعهد ومثابرة :

إن تعهد القرآن والمثابرة على تدبره أمر لابد منه لحياة الإنسان.

« والذى يتعاهد القرآن ويشتدُّ عليه ، له أجران ، والذى يقرأ القرآن وهو خفيف عليه ، مع السفرة الكرام البررة » كما قال رسول الله ﷺ وقيل لعبد الله بن مسعود : إنك لَتُقلُّ الصوم .

فقال : إنَّه يمنعنى عن قراءة القرآن وقراءتُهُ أحبُّ إلىَّ منه » .

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص : إن من أشراط الساعة أن يُبْسَطَ القول ويُخْزَنَ الفعْل ويُرفَعَ الأشرار ، ويُوضَعَ الأخيار .

وأن تُقْرأ المَثْنَاةُ على رؤوس الناس لا تُغيِّر .

قيل وما المثناة ؟ قال : ما استُكْتِبَ من غير كتاب الله .

قيل له فكيف بما جاء من حديث رسول الله ﷺ ؟

قال : ما أخذتموه عمن تأمنونه على نفسه ودينه فاعقِلُوه .

وعليكم بالقرآن فتعلَّموه ، وَعَلِّمُوهُ أبناءكم .

فإنكم عنه تُسألون ، وبه تُجْزَوْن ، وكَفَى به وَاعظا لمن عَقَل .

عليكم بالقرآن تعلَّموه وتَدَبروه لتعملوا به وأنتم فى صحبة رسول الله لتتخذوا معه سبيلاً للهدى والنجاة . فإنكم عنه تُسالون. وبه تجزون .

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً (٢٩) ﴾ (الفرقان : ٢٧ ـ ٢٩)

« يخبر الله تعالى عن نَدم الظّالم الذى فارق طريق الرسول ﷺ وما جاء به من عند الله من الحقّ الذى لا مرية فيه . وسلك طريقاً اخرى غير سبيل الرسول فإن كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم وعضّ على يديه حسرة واسفا فكل ظالم يندم يوم القيامة غاية الندم ويعض على يديه قائلا « يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا » يعنى من صرفه عن الهدى وعدل به إلى طريق الضلال من دعاة الضلالة .

« لقد اضلنى عن الذكر .. وهو القرآن بعد إذا جائنى أى بعد بلوغه إلىّ .

« وكان الشيطان للإنسان خذولا » اى يخذله عن الحق ويصرفه عنه ويستعمله فى الباطل ويدعوه إليه » .

« وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا » .

يقول الله تعالى مخبرا عن رسوله ونبيه محمد ﷺ أنه قال :

« يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا »

« وذلك أن المشركين كانوا لا يصغون للقرآن ولا يستمعونه كما قال تعالى :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ (فصلت : ٢٦)

فكانوا إذا تُلى عليهم القرآن أكثروا اللَّغَط والكلام فى غيره حتى لا يسمعونه فهذا من هجرانه وترك الإيمان به وترك تصديقه من هجرانه .

وترك تدبره وتفهمه من هجرانه .

وترك العمل به وامتثال أوامره واجتناب زواجره من هجرانه .

والعدول عنه إلى غيره من شعر أو قولٍ أو غناءٍ أو لهو أو كلام أو طريقة مأخوذة من غيره من هجرانه .

فنسأل الله الكريم المنّان القادر على ما يشاء أن يخلصنا مما يُسخطه ويستعملنا فيما يرضيه من حفظ كتابه وفهمه والقيام بمقتضاه اناء الليل وأطراف النهار على الوجه الذى يحبه ويرضاه إنه كريم وهاب » .

ذاك ما ذكره الإمام بن كثير فى تفسير هذه الآية .

وهذه الشكوى لها دلالتها فى ذاتها وفيما يترتب عليها

« وقال الرسول » أى بثًّا وشكاية لله مما صنع قومه .

ومن تدبرها عرف ما فيها من تخويف لمن اتخذ القرآن مهجورا .

لأن الأنبياء إذا شكوا إلى الله تعالى قومَهم عجّل لهم العذاب .

أما بالنسبة للرسول ﷺ فقد سلّاه ربُّه وسرّى عنه حيث قال :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (١١٢) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم

مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾(الأنعام : ١١٢ ـ ١١٣)

ذكـر ابن جريـر بسنده عن أبى ذر رضى الله عنه قـال « أتيت النبى ﷺ فى مجلس قد أطال فيه الجلوس قال : فقال يا أبا ذر هل صلَّيْتَ » قلت لا يا رسول الله قال « قم فاركع ركعتين » .

قال : ثم جئت فجلست إليه .

فقال : « يا أبا ذر هل تعوذت من شياطين الجن والإنس » ؟

قال : قلت لا يا رسول الله وهل للإنس من شياطين ؟

قال : « نعم هم شر من شياطين الجن »

﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عـدوًّا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا ﴾ .

فلا يحول بين هداية الله ونصرته صد ولا عداوة وكيد .

﴿ وكفى بربك هاديا ونصـيرا ﴾ لمن اتبع رسـوله وآمن بكتابه وصدقه واتبعه فإن الله هاديه وناصرهُ فى الدنيا والآخرة .

إن شكوى الرسول ﷺ فى اتخاذ قومه القرآن مهجوراً .

لا تتوقف دلالتـها على ما وقع أو يقع من هـجران القـرآن فذلك حاصل فى جميع الأمم من قبل . « كلمـا جَاءَ امةً رسولُها كذبوه » ومع التكذيب كيدٌ وهـجران .

لكن ذلك التكذيب والهجران فيـه ابْتِلاَءٌ وَتَدْ يصٌ لطلاب الحق فى أى زمـان أو مكان . هل يثـبـتـون على الحق أم يُسْـتَخَـفُّـون ويُستدرجون ؟

إن هـجران القرآن الكريم تَتَـعَدَّدُ صوره . وشكوى الرسول من

الهجران لا تقف عند زمن بعينه .

فإن القرآن الكريم محفوظٌ للزمن كُلّه نذيراً للعالمين

والشكوى إلى الله من كل من عَدَل عنه وضيّعه ستظل قائمة ما بقى القرآن .

وهو باق محفوظ بحفظ الله لا يقترب من ساحته باطل . ولا ينال من عزته متآمر أو جاحد . ولا يُبْطل هدايته أو يطفئ نوره شنآنٌ قومٍ أو هجران .

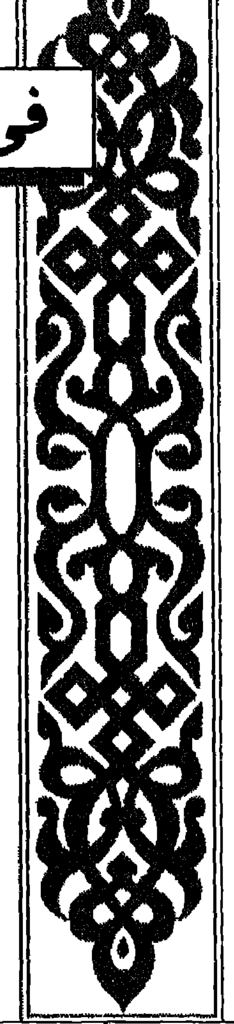
﴿ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (فصلت : ٤١ ـ ٤٢)

فالشكوى ممن عدل عنه وضيّعه شكوى إدانة له وتسجيل عليه تذكّر وتبصر وتنذر .

فإن القرآن فى عزته وسلطانه لا يُخاصم ولا يُنازع .

فان « القرآن شافع مشفّع ، وما حل مصدّق . من شفع له القرآن نجا ومن مَحل به القرآن يوم القيامة كبّه الله لوجهه فى النار . وأحَقُّ من شفع له القرآن أهلُه وحَملَتُه . وأولى من مَحَل به من عَدَلَ عنه وَضيَّعَهُ » .

هكذا نرى عزةَ القرآن ومكانته وسلطانه « من اتّبعه قادَه إلى الجنّة ، ومن تركه أو أعرض عنه دَحَّ فى قفاه إلى النار . والدَّح : دَفْع بعنف. فالشكوى من هجران القرآن : فيها تبصرة وتذكرة وإعْذَارٌ وانذار والآيةُ تُقْرَأ في القرآن إنذاراً لكل من هجر القرآن إلى آخر الزمان ولن يوُقَف مَدُّه أو تُحْصَرَ هدايَتُه . والله يهدى به من يشاء ﴿ وكفى بِرَبِّكَ هاديا ونصيرا ﴾



جهاد لا ينقطع

١١ - جهاد لا ينقطع :

إنَّ جهاد الرسول ﷺ بالقرآن موصول لا ينقطع
وقد نَزَّل الله عليه الفرقان ليكونَ للعالمين نذيراً

« ولو شئنا لبعثنا فى كل قَرْيةٍ نذيرا » يدعوهم إلى الله عز وجل ولكنا خصصناك يا محمد بالبعثة إلى جميع أهل الارض وأمرناك أن تبلغهم القرآن :

﴿ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾ (الأنعام : ١٩)

﴿ فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) ﴾(الفرقان : ٥٢)

﴿ وجاهدهم به ﴾ يعنى بالقرآن كما قال ابن عباس رضى الله عنهما فجهاد الرسول ﷺ بالقرآن موصول فى كل زمان ومكان .

وقد بعث الرسول ﷺ إلى الناس عامة وكان النبى يبعث إلى قومه خاصة .

وقد يقول قائل إن قول الله عز وجل مخاطبا رسوله ﷺ.

﴿ فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً ﴾ خاص بالرسول ﷺ وهو يجاهد الكفار فى زمنه وينذرهم بالقرآن فى حياته .

فكيف تقول إن جهاد الرسول ﷺ موصول لا ينقطع ، إذ كيف يكون ذلك بعد وفاته ﷺ ؟

أعود فأقول : إننا نرى الرسول ﷺ فى القرآن ونرى القرآن الكريم فيه .

فإنذاره ليس إنذاراً لمن كان فى زمنه فحسب وإنما هو إنذار للعالمين إلى يوم الدين .

فلا ترى الرسول ﷺ منفصلا عن القرآن وإن لقى ربه .

﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ﴾(الأنعام : ١٩)

أى وهو نذير لكل من بلغه .

قال ابن حاتم : حدثنا أبو سعيد الاشج . حدثنا وكيع وابو أسامة وأبو خالد عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب فى قوله (ومن بلغ) من بلَغَه القرآنُ فكأنما رأى النبى ﷺ زاد أبو خالد « وكلَّمَهُ » .

وقد رواه ابن جرير من طريق أبى معشر عن محمد بن كعب قال : من بلغه القرآن فقد أبلغه محمد ﷺ « ومن بلغ » أى وهو نذير لكل من بلغه كما قال الله عز وجل ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ .

أى ومن يكفر بالقرآن من سائر أهل الأرض مشركهم وكافرهم ، وأهل الكتاب وغيرهم من سائر طوائف بنى آدم على اختلاف الوانهم واشكالهم ممن بلغه القرآن « فالنار موعده » .

ومن هنا يُعلم أن للقرآن نوراً وناراً فمن أبى النور فالنار موعده .

وفى صحيح مسلم عن أبى موسى رضى الله عنه قال : «والذى

نفسى بيده لا يسمع بى أحدٌ من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا أدخله الله النار » .

وعن سعيد ابن جبير قال : كنت لا أسمع بحديث عن النبى ﷺ على وجهه إلا وجدت مصداقه أو تصديقه فى القرآن .

فَبَلَغَنى أن النبى ﷺ قال : « لا يسمع بى أحدٌ من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى فلا يؤمن بى إلا أدخله الله النار » .

فجعلت أقول أين مصداقه فى كتاب الله ؟

قال : وقلما سمعت عن رسول الله ﷺ إلا وجدت له تصديقا فى القرآن حتى وجدت هذه الآية ﴿ ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده ﴾ قال : من الملل كلها .

وبعد :

فإن الرسول ﷺ داع إلى الله بما أوحى إليه إلى قيام الساعة فليس بعده رسول ولا بعد الكتاب المنّزل عليه كتاب .

﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) ﴾ (الاعراف : ١٥٨)

ولذا فإن الله عز وجل قد حفظ لنا سنة الرسول ﷺ كما حفظ الكتاب ليكون اتباع الرسول ﷺ على بيّنة والاقتداء به على منهاج وشرعه .

حفظ الله سنة رسوله كما حفظ القرآن حتى لا يغيب عن الناس ذكرٌ أو بيان فاتباع الرسول ﷺ اتّبَاعٌ للقرآن . وما سنّه الرسول

ﷺ فبحكم الله سنَّه .

كما قال الشافعى رضى الله عنه « وما سنَّ رسول الله فيما ليس لله فيه حكم ـ فبحكم الله سنَّه وكذلك أخبرنا الله فى قوله ﴿ وإنك لتهدى إلى صراطٍ مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ﴾ . ﴿ وقد سنَّ رسول الله مع كتاب الله، وسنَّ فيما ليس فيه بعينه نصٌ كتاب ﴾ « وكلُّ ماسنَّ : فقد الزمنا الله اتباعه وجعل فى اتباعه طاعته ، وفى العُنُود عن اتباعه مَعْصيتَه التى لم يَعْذِر بها خَلْقاً ، ولم يجعل له من اتباع سنن رسول الله مخرجا » .

وكذلك قال الإمام أحمد رضى الله عنه : « إن الله جل ثناؤه ، وتقدَّست أسماؤه بَعَثَ محمدا بالهدى ودين الحق : ليظهره على الدين كلِّه ولو كره المشركون وانزل عليه كتابه الهدى والنور لمن اتبعه .

وجعل رسوله : الدال على ما أراد : من ظاهره وباطنه ، وخاصِّه وعامِّه .

وناسخه ومنسوخه وما قصد له الكتاب .

فكان رسول الله هو : المعبِّر عن كتاب الله ، الدالّ على معانيه .

شَاهَدَهُ فى ذلك أصحابُه الذين ارتضاهم الله لنبيِّه ، واصطفاهم له ونقلوا ذلك عنه .

فكانوا هم أعلَمَ الناس برسول الله ﷺ وبما أراد الله من كتابه بمشاهدتهم وما قصد له الكتاب .

فكانوا هم المعبِّرين عن ذلك بعد رسول الله .

قال جـابر : ورسولُ الله بين أظهـرنا عليه ينزل الـقرآن ، وهو يعرف تأويله وما عمل به من شئ عَملنا به » .

لذَا كانت حيـاةُ الرسول ﷺ كلُّها معلومةٌ للـناس لا يخفى منها شئٌ أىُّ شئ .

مـا كـان يعملـه فى داخل بيـته من غـسله ووضـوئه ونومـه ومعاشرته لأزواجه ومأكله ومشربه وما يدور فى بيته من شئون وما يُعَدُّ من طعام وما يُوقد من سراج . ما يلبسه وما يتطيب به .

هيئة فراشه ومداعبته لأزواجه وملاطفته لأهل بيته ذكره لربه، وقوفـه في الصلاة بين يديه ، ومـا يتلوه من قرآن ، ومـا يواظب عليه من سنن ، وما يحرص عليه من نوافل .

فى البيت زوجاتٌ يحدثن عن كل مـا يقع منه فى أخص شئونه دون حرج وفى خـارج البيت حـيث الأعين ترقبـه والقلوب تتطلع اليـه والنفـوس مـشوقـة لرؤيتـه لا يكاد البـاب يُفـتح . ولا يكاد الرسول ﷺ يخرج إلى الناس فى أى شـأن من شئونه حتى ترى من يسجّل كلَّ شـئ حتى حركـات يده وقسمـات وجهه ، وهيـئة مجلسه وتبسمه .

يسـجلون ما ينطق به ومـا يصـدر عنه من قيـام أو قعـود أو انتقال .

والصحـابة جميعـا حريصون على أن يروه وأن يسمـعوا منه بقدر حفاوتهم وحرصهم على التمسك بسنته والاهتداء بهديه .

إن صحابة رسول الله ﷺ لم يتركوا شأنا من شئونه ؟ تحدثوا عنه ولم يعرف فى تاريخ البشر قاطبة أن نَبِيّاً د الأنبياء ، أو عظيماً من العظماء اشتهرت سيرته ، وعُرِفَ كلُّ شـ عنه مثل ما تم لرسول الله محمد ﷺ خاتم النبيين الذى أرسله الله رحمة للعالمين .

لقد حُفِظَ عنه كلُّ شئ . وقام بين أيدينا سجلٌ ناصع يقرؤه القارئ فيرى نفسه مع الرسول ﷺ بصفته وهيئته ، ومأكله ومشربه ، وقيامه وقعوده ، وسعيه وعمله ، وطيبه وملبسه .

يراه قائما فى المسجد يؤم المصلين .

وفى الميدان يقود المجاهدين .

يراه مع اليتيم والضعيف والخادم فى البيت وفى الطريق يقضى حاجتهم يراه بِسِمَتِه النيِّرة وحقيقته الكاملة من لحظة بعثته إلى أن لقى ربه . بل مِنَ ساعة ولادته قبل أن يُبعث ويُوحَى إليه .

يراه فى داخل بيته وخارجه صفحة مشرقة ليس فيها ما يُطوى أو ينكر .

وسل كتب الحديث ترشدك .

ومصنفات المغازى تنبئك .

سل التاريخ الاسلامى ـ وما أجل شأنه ـ يعطيك خبره .

واستنبئ مسطرات الشمائل والدلائل وهى ترسم أثره .

وقبل هذا وبعده اقرأ كتاب الله تَعْرِفْه ، وتأمل . هدايته تجدْه

عش فى روضة القرآن تكن فى صحبة الرسول ﷺ وصل حياتك به تصل فؤادك بالنور .

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ (المائدة : ١٥ ـ ١٦)

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ﴾ (النساء : ١٧٤)

نعم فى دوحة القرآن ونور آياته تعرف الرسول وتراه .

وتدرك من أمره أنه خاتم النبيين وانه قد جاء مُبلّغا رسالات جميع الانبياء .

الا نقرأ فى سورة الشورى :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ (الشورى : ١٣)

فَدِينُه لم يَدَعْ فضلاً لماضٍ إلا سجّله .

ولم يترك أثرا لنبى ـ فيه عبرةٌ وَعظةٌ ـ إلاّ وضّحَهُ وبيّنه .

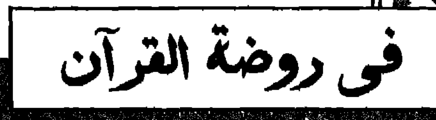
فهو دين نوح وابراهيم وموسى وعيسى ومُحَمَّد . دين الله الذى ارتضاه ولم يرتض لاحدٍ دينا غَيره .

لو أنهم خرجوا جميعا إلى الخلق ما وسعهم إلا الإيمان به ومناصرته والدعوة إليه .

كما قال الرسول ﷺ « لو أن موسى حيٌ ما وسعه إلا اتباعى »

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾

(آل عمران : ٨١)



دين واحد

١٢ـ دين واحد :

إن الإيمان برسالة محمد ﷺ إيمانٌ برسالة الرسل جميعا والقرآن الكريم ـ المحفوظ بحفظ الله ـ جامعٌ لهم ولرسالاتهم جميعا وشمائل الرسول ﷺ ـ جامعةٌ لشمائلهم جميعاً وأخلاقهم وهُدَى الله الذى هدى الله به الأنبياء هو الهدى الذى بُعث به خاتمهم ودعا إليه وأمِرَ ﷺ أن يقتدى بهداهم « أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » فلا انفصال بين رسالة الرسل ولا تفريق بينهم ودينُهم واحد ولا قبول للإيمان من أحدٍ بغير الإيمان بهم جميعا « لا نفرِّق بين أحدٍ من رسله » وتلك حقيقة إن غابت عمن ينسبون أنفسهم إلى أنبيَاء لم يكونوا صادقين أنهم أتباع أنبياء وإنما هم فى الحقيقة أتباع شهواتٍ وأهواء لأن الأنبياء جميعا دينُهم واحد ، فمن كفر بواحدٍ منهم فقد كفَّر بهم جميعا وهذا ما أرشد الله عباده المؤمنين إلى الإيمان به :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾(البقرة ـ ١٣٦)

أرشدهم إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد ﷺ

مفصّلا ومـا أنزل على الأنبياء المتقدمين مجـملا ونَصّ على أعيانٍ من الرسل وأجمل ذكر بقـية الانبياء وأن لا يفـرقوا بين أحدٍ منهم بل يؤمنون بهم كلهم ولا يكونون كمن قال الله فيهم:

﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١) ﴾ (النساء : ١٥٠ ، ١٥١)

فالإيمان برسالة محمد إيمان برسالة الرسل جميعا

والتفريق بين الأنبياء كفرٌ بهم جميعا

وتلك حقيـقة لا يملك أحدٌ أن ينسب إلى الأنبياء ما ينـاقضـها أو يخالفـها وهى برهانٌ من براهين الحق على عـالمية هذا الدين وأنه لا ريب فيه من ربِّ العالمين :

﴿ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) ﴾ (ص : ٨٧ ، ٨٨)

إن الروح العالمية سارية فى كل شئ من أمر هذا الدين

فى أصوله وفروعه وفى عقيدته وفرائضه.

وفى أخلاقه ومعاملاته

بل فى شمائل الرسول ﷺ وفضائله.

في روضة القرآن

معجزة باقية

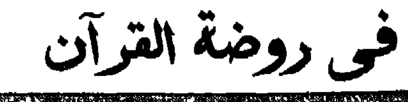
١٣ معجزة باقية :

فالحمد لله الذى حفظ لنا الدين فيما أنزل من كتاب وأرسل من رسول حفظ لنا الذكر في كتـاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهذا الكتاب هو المعجزة البـاقية لمن أرسله الله رحمة للعالمين وبحفظ هذا الكتاب حُفِظَت الرسالةُ وحُفِظَ الرسول

فلم يبق لأحد - إلى يوم الدين - أن يقول «ما جاءنا من رسول» ولا أن يقول أين الدليل عليه حتى أومن به.

فذاك الكتاب وهذا الرسول.

وأنت تقـرأ القـرآن لا يبـعـد عنـك أن تراه فى واقع . تراه فى رسـول الله ومن ربّاهُم من صـحـابتـه الـكرام والّذين اتبـعـوهم بإحسان وترى أثره فيمن آمن به واهتدى بهداه.





مع الرسول ﷺ فى القرآن

١٤ . ،ع الرسول فى القرآن الكريم

اولا ـ فى تربيته ونشأته والإعداد لرسالته.

إذْ لا يغيب عنا من أمر نشأته واعداده وتربيته وبعثته شئ .

.ة نشأ يتيما فآواه الله

وذلك أن اباه توفى وهو حمل فى بطن أمه

ثم توفيت أمه آمنة بنت وهب وله من العمر ست سنوات.

ثم كان فى كفالة جده عبدالمطلب إلى أن توفى وله من العمر ثمان سنين فكفله عمه أبوطالب ثم لم يزل يحوطه وينصره ويرفع من قَدْره ويوقره ويكف عنه أذى قومه

بعدَ أن ابتعثه الله على راس اربعين سنة من عمره . هذا وأبو طالب على دين قومه من عبادة الأوثان.

وكل ذلك بقدر الله وحسن تدبيره

وتلك عناية الله به ورعايته له.

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) ﴾ (الضحى : ٦ ـ ٨)

ما ودعه الله ابدا ولا قلاه حتى قبل أن يَعهد إليه بما اوحى إليه

لقد احاط يُتْمَهُ برعَايَته . وادركت حيرتَه هدايتُه

وقد كان فقيرا فأغنى الله نفسه بفضله وعطائه.

إذ «ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس»
فما قلاه الله ولا جفاه من قبل أن يبعث ومن بعد
﴿ وَالضُّحَىٰ (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ (٦) وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١) ﴾
(سورة الضحى)
سورة الضحى هذه مكية وآياتها إحدى عشرة
ومجمل ماورد فى سبب نزولها أن الوحى فَتَّر عن رسول الله ﷺ وأبطأ عليه جبريل عليه السلام.
فقال المشركون : ودع محمداً ربُّه
فأنزل الله تعالى هذه السوره . خالصة كلها للنبى ﷺ
تبين أنه موضع العناية والتكريم من بداية أمره إلى منتهاه.
وأنه موصول بالنعمة والعطاء فى دنياه وأخراه
وأن زاده من الوحى ولقاء جبريل والاتصال بالله ممتدٌ لا ينقطع. سورة تبدأ بالقسم بالضحى والليل إذا سجى فى آيتين.
وما بعد القسم كلُّه خطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم.
ومن شاء أن يتدبر هذه السورة فَلْيَعْلَمْ أن ما خص الله به نبيَّه.
من إيواء وهداية وتعظيم يتلى فى آيات الذكر الحكيم ليكون بلاغا للعالمين فمن ذا الذى يقرأ هذه السورة فلا يرى فيها رسول

الله كما أراه الله . يراه فى يُتْمه وقد آواه ربُّه.

يراه فى حيرته - طَلَبا لهداية قومه إلى صراطٍ مستقيم - وقد هداه

يراه عائلا قد أغناه ربه بغناه.

يراه فى الحياة - من بعد - مع اليَتيم أبا يفوق فى رحمته رحمةَ الآباء وفى سخائه بنعمة الله يفوق كل سخاء.

بل يراه فى حياته كلها يؤثر ما ارتضاه له الله « وللآخرة خير لك من الأولى » وهو الذى يدعو ربه ويقول : الله اجعل رزق آل محمد قوتا.

قالت عائشة رضى الله عنها : ما شبع عليه الصلاة والسلام ثلاثة أيام تباعا من خُبْزٍ حتى مضى لسبيله.

وقالت رضى الله عنها ما ترك عليه الصلاة والسلام ديناراً ولا درهما ولا شاة ولا بعيراً وقد قال ﷺ : إنى قد عرض عليّ أن تجعل بطحاء مكة ذهبا.

فقلت : لا يارب أجوع يوما وأشبع يوما.

فاما اليوم الذى اجوع فيه فاتضرع اليك وأدعوك.

وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك واثنى عليك.

وقالت عائشة رضى الله عنها : إن كنّا آل محمد لنمكث شهراً ما نستوقد ناراً. إن هو إلا التمر والماء.

ولما احتضر النبى ﷺ استعارت عائشة رضى الله عنها زيت سراجها من إحدى جاراتها.

ومما هو جدير بالذكر فى هذا المقام أن مظاهر الزهد هذه كلها

كانت اختيارية غير اضطرارية. لم يكن يقصد منه التضييق على الناس فى الانتفاع بالطيبات . روى الامام أحمد عن عبدالله بن مسعود رضى الله عنه قال: اضطجع رسول الله ﷺ على حصير فأثّر فى جنبه، فلما استيقظ جعلت أمسح جنبه.

وقلت : يارسول الله ألاَ آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئا.

فقال رسول الله ﷺ «مالى وللدنيا إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها»

سورة الضحى يقرأها القارئ فى القرآن الكريم

فيرى فيها رسول الله ﷺ كما صنعه الله واصطفاه

سورة يبدأ القسم فيها بالضحى والليل إذا سجي. والمقسم عليه قوله «ما ودعك ربك وما قلي» وما بين المُقْسَمَ به والمُقْسم عليه من تناسب فيه إيحاء للنفس أيٌ إيحاء إذا ما لاحظنا ما يلقاه المؤمن من أحوالٍ فى هجير الحياة وهو موصول دائما بالله ناعمٌ برضاه.

فلا يكونُ سجى الليل عليه إلا راحةً وسكوناً ولا يكون الضحى إلا إشراقاً ونوراً ففى تقلب الليل والنهار عبرة لأولى الأبصار. وفى تقلب الأحوال إظهارٌ لمعادن الرجال والله وحده هو الذى يقلب الليل والنهار. والله وحده هو الذى يبتلى الناس بتقلب الاحوال فلا يكون الرجاء والخوف دائما - إلاَّ فى الله ومن الله . وهذا ما كان من رسول الله.

ثانيا ـ فى علاقته بغيره:

عندما نتدبر ذلك فى القرآن الكريم

نرى علاقته مع الناس جميعا علاقةَ رسول يبلِّغ ما أنزل إليه من ربِّه.

آمن بما أنزل إليه وتَخلَّق به فكان داعيا إلى الله ـ مع البلاغ ـ بسائر اخلاقه وآدابه.

من الدين ، والعلم ، والحلم ، والصبر ، والشكر ، والعدل ، والزهد ، والتواضع والعفو ، والعفة والجود ، والشجاعة والحياء ، والمرؤة والتؤدة ، والوقار والرحمة وحسن الأدب والمعاشرة وجميع صفاته يجمعها قول الله عز وجل «وإنك لعلى خلق عظيم»

وقد كان خلقه القرآن يرضى برضاه ويسخط بسخطه.

فقد صار امتثال القرآن أمْرًا ونهيًا سجيَّةً له وخلقا

فمهما أمره القرآن فَعَلَه ومهما نهاه عنه تركه.

هذا ما كان عليه من الخلق العظيم ﷺ .

روى الامام أحمد عن عائشة رضى الله عنها قالت : ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادما له قط . ولا ضرب امرأةً ، ولا ضرب بيده شيئًا قط إلاَّ أن يجاهد فى سبيل الله . ولا خُيِّر بين شيئين قط إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثما فإذا كان إثما كان أبعد الناس من الإثم.

ولا انتقم لنفسه من شئ يوتى إليه إلا تنتهك حرمات الله فيكون هو ينتقم لله عز وجل.

وذاك ما جُبلَ عليه وما أخبر الله به:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) ﴾ (آل عمران : ١٥٩)

وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ (التوبة : ١٢٨)

« فبما رحمة من الله لنت لهم » أى برحمة من الله .

وقال الحسن البصرى : هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به.

ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك »

والفظ : الغليظ المراد به ههنا غليظ الكلام لقوله بعد ذلك «غليظ القلب» أى كنت سئ الكلام قاسى القلب عليهم لانفضوا عنك وتركوك . ولكن الله جمعهم عليك وألان جانبك لهم تأليفا لقلوبهم كما قال عبدالله بن عمرو : إنى أرى صفة رسول الله ﷺ فى الكتب المتقدمة أى ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخّاب فى الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح.

«فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر»

ولذلك كان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه فى الأمر إذا حَدَث تطييبا لقلوبهم ليكون أنشط لهم فيما يفعلونه . كما شاورهم يوم بدر.

فقالوا : يارسول الله لو استعرضت بنا عرض البحر لقطعناه معك.

ولو سرت بنا إلى برك الغماد لسرنا معك.

ولا نقول لك كما قال قوم موسى لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون . ولكن نقول : إذهب فنحن معك وبين يديك وعن يمينك وعن شمالك مقاتلون.

وشاورهم يوم أحد فى أن يقعد فى المدينة او يخرج إلى العدو.

فاشار جمهورهم بالخروج إليهم فخرج إليهم.

وشاورهم يوم الخندق فى مصالحة الأحزاب بثلث ثمار المدينة عامئذ

فأبى ذلك السَّعْدان : سعد بن معاذ وسعد بن عبادة . فترك ذلك فكان ﷺ يشاورهم فى الحرب وفى غيرها.

وقد روى الإمام أحمد عن عبدالرحمن بن غنم أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر وعمر : «لو اجتمعتما فى مشورة ما خالفتكما»

وروى بن مردويه عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن العزم ؟ فقال « مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم ».

وروى ابن ماجة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « المستشار مؤتمن »

فإذا عزمت فتوكل على الله » أى إذا شاورتهم فى الأمر وعزمت عليه فتوكَّل على الله فيه.

« إنّ الله يحب المتوكلين »

هكذا كان رسول الله مع أصحابه.

وتلك خصائصه معهم ومع غيرهم

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم » الخطاب بقوله «من انفسكم للعرب ولقريش

وهو كذلك خطاب للعالمين : لان هذا الرسول الذى عظم شانه بالرسالة هو من جنس البشر.

وَقُرِئَ « من أَنْفَسِكُم » بفتح الفاء من النفاسه ، ومعناه أنه من اشرفكم وافضلكم.

« عزيز عليه ما عنتم »

« عنتم » من العنت بمعنى المشقة والفساد والهلاك.

شاق عليه عنتكم وهو ما تلقونه من عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة.

فإن النبى ﷺ يشق عليه كل ما يشق ويصعب عليكم.

« حريص عليكم »

ومادة « حرص » إذا تعدت بحرف على .

فانها تدل على شدة الطلب وغاية الحرص.

وهكذا كان الرسول ﷺ يرغب فى نفع أمته غاية الرغبة.

فامنيته صلاح الأمة وهدايتها.

ومع ما كان يلقاه من قومه من أذى لم يَدْعُ عليهم بل دعا لهم «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون» كان شديد الحرص على

هدايتهم شديد الحزن لتركهم الإيمان وبعدهم عنه كما قال الله عز وجل:

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ⑥ ﴾ (سورة الكهف : ٦)

باخع نفسك : أى مهلك نفسك بحزنك عليهم.

« إن لم يؤمنوا بهذا الحديث » يعنى القرآن.

« أسَفًا » أى لا تهلك نفسك أسفا.

لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها :

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ ﴾ (فاطر : ٨)

فأى حرص أعظم وأبلغ من ذلك .

والله عز وجل يُسلِّيه ويُسرى عنه ليخفف من أسفه عليهم وحزنه البالغ على تركهم الإيمان وبعدهم عنه وهو يعلم ماهم صائرون إليه إن لم يؤمنوا بما جاءهم به.

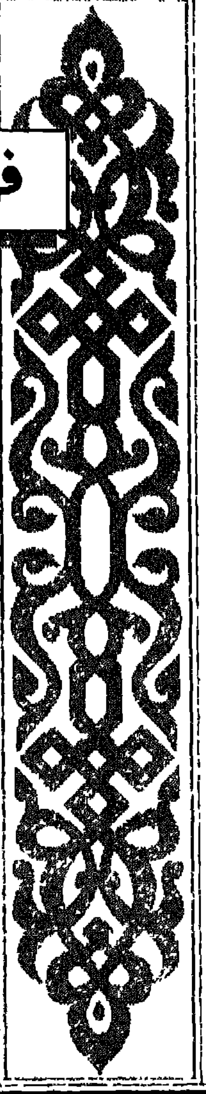
«بالمؤمنين رءوف رحيم»

قال الحسن بن الفضل : لم يجمع الله لأحدٍ من أنبيائه اسمين من اسمائه تعالى :

إلا للنبى ﷺ فسماه رءوفا رحيما.

وقال تعالى : «إن الله بالناس لرءوف رحيم».





الرسول ﷺ فى أهل بيته

١٥ـ الرسول (ص) فى أهل بيته :

إن لبيوت النبى ﷺ من زيارة جبريل عليه السلام ـ وهو ينزل بالوحى ـ أوفر نصيب.

عبَّرت عن ذلك أم المؤمنين أم سلمة رضى الله عنها عندما زارها أبو بكر وعمر رضى الله عنهما بعد وفاة النبى ﷺ فبكت.

فقالا لها : ما يبكيك ؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ .

فقالت : أعلم ذلك وإنما أبكى انقطاع الوحي.

لم يعد جبريل ياتينا بعده.

من المعلوم أن رسول الله ﷺ قد تزوج خديجة بنت خويلد وهو ابن خمس وعشرين سنة وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة.

وقد شاء الله أن تكون خديجة رضى الله عنها هى التى تستقبله عندما رجع من غار حراء بعد أن جاءه جبريل عليه السلام بالوحى من عند ربه وقال « اقرأ ».

دخل ﷺ على خديجة وقال « زملونى زملونى » فزملوه حتى ذهب عنه الروع.

فقال : ياخديجة مالى وأخبرها الخبر. لقد خشيتُ على نفسى ـ لأنّ الملك غطّه حتى بلغ منه الجهد . ولم يكن عليه الصلاة والسلام علم قبل ذلك بجبريل.

فقالت له : كلا والله ما يخزيك الله أبدا..........»

ان خديجة رضى الله عنها قد عرفته من قبل فعرفت خلاله وخصاله.

فأدركت بفطرتها أن الله قد اختاره لهداية قومه . واستوثقت حين انطلقت برسول الله ﷺ إلى ابن عمها ورقة وهو ممن اطلع على كتب الأقدمين وله علم بحال الرسل. فسمع من رسول الله ﷺ وأكد ما أدركته خديجة بفطرتها وعبرت عنه بقولها «والله ما يخزيك الله أبدا... » حيث قال ورقة :

«هذا الناموس الذى نَزَّل الله على موسى . لأنه يعرف أن رسول الله إلى أنبيائه هو جبريل عليه السلام.

بيتٌ قد هيئ من قبل لاستقبال هذا النبا العظيم.

فكانت خديجة أول من عرفت وصدّقت وبلّغت ابن عمها بما عرفت وكانت ذات فطنة حين خطبته لنفسها وآثرته على جميع قومها.

«قالت نفيسةُ بنتُ مُنْيَه: كانت خديجةُ بنت خويلد بن أسد بن العُزّى بن قصى امرأةٌ حازمةٌ جادةٌ شريفةٌ ، أوسط قريش نَسَبًا وأكثرهم مالا.

وكلٌ قومها كان حريصا على نكاحها لو قَدَر على ذلك. قد طلبوها وبذلوا لها الأموال.

فأرسلتنى «دسيسا» والمقصود أنها أرسلتها سِرًا لتأتى لها بالخبر - إلى محمد بعد أن رجع من الشام.

فقلت يا محمد : ما يمنعك أن تَزَوج؟

فقال : ما بيدى ما أتزوج به.

قُلتُ : فـإنْ كُفـيتَ ذلك ورُعـيتَ إلى الجـمال والمال والشـرف والكفاءة الا تُجيبَ ؟

قال : فمن ؟

قلتُ : خديجة.

قال : وكيف بذلك ؟

قلت : علَيٌ.

قال : وأنا أفعل.

فذهبتُ فأخبرتُها.

فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا وكذا.

وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها فحضر.

ودخل رسـول الله فى عمـومـته فـتـزوجهـا وهو ابن خـمس وعشرين سنة، وخديجة يومئذ بنت اربعين سنة.

وقد حضَر أبو طالب ومعه بنو مضر : فقال أبو طالب.

الحـمد الله الذى جـعلنا من ذرية إبراهيم . وزرع إسـماعـيل ، وضئضئ معد.

وعنصر مضر.

وجعلنا حضنة بيتـه وسوَّاس حرمه ، وجعل لنا بيتا مـحجوجا وحرماً آمنا وجعلنا الحكام على الناس.

ثم إن ابن أخى هذا محمد بن عبدالله لا يوزن به رجلٌ إلا رَجَحَ به.

فإن كان فى المال قُلّ. فإن المال ظل زائل وأمر حائل.

ومحمد من قد عرفتم قرابته ، وقد خطب خديجة بنت خويلد وبذل لها الصداق ما آجله وعاجله من مالي.

وهو بعد هذا والله له نبأ عظيم وخطر جليل.

فتزوجها رسول الله ﷺ .

مقدمات تنبئ عن معرفة وكلمات دالة على حقيقة.

خديجة ـ وهى من هى ـ تطلبه لنفسها وتؤثره على جميع من سواه ـ مع أنه فى المال قُلّ وعمّه أبو طالب يقول فيما قال «إن ابن أخى محمد بن عبدالله لا يوزن به رجلٌ إلا رجح به»

ويقول «وهو بعد هذا والله لَهُ نبأٌ عظيم وخطر جليل».

ومحمد بن عبدالله يومئذ ابن خمس وعشرين سنة أى قبل بعثته بخمسة عشر عاما وخديجة من بعد ـ وقد عرفت وأيقنت ـ تقول : «كلا والله ما يخزنك الله أبدا إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف وتعين على نوائب الحق».

وجعفر ابن ابى طالب يقول للنجاشى حين سأل ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ؟

فقال جعفر رضى الله عنه فيما قال : أيها الملك كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام

ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام ونسئ الجوار يأكل القويُّ الضعيف.

فكنا على ذلك حتى بعث الله عز وجل الينا رسولا منّا نعرف

نسبه وصدقه وأمانته وعفافه.

فدعانا إلى الله عز وجل لنوحده ونعبده ونخلع ماكنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه......»

وأبو سفيان ابن حرب يقول حين سئل من قيصر عن النبى ﷺ : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟

قال: لا

فقال الملك : سألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا فقلتُ : ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

وأبو سفيان يومئذ عدوٌ يقود قومه فى حرب ضد رسول الله ﷺ .

إجماع أىُّ اجماع على صدقه وأمانته فى حياته كلها.

فلا عجب أن تطلبه خديجة رضى الله عنها لنفسها وأن يتكوَّن بها أول بيت لمحمد بن عبدالله قبل أن يبعث ليكون خاتم الأنبياء.

ولما بُعث ﷺ كانت أول امرأة آمنت به ولم يتزوج غيرها حتى ماتت وجميع أولاده منها سوى إبراهيم.

وقد توفيت بعد أن مضى من النبوة عشر سنين وهى بنت خمس وستين سنة رضى الله عنها وأرضاها عشر سنين قضتها خديجة مع رسول الله وهو نبى . وجبريل يأتيه بالوحى مزملا ومدثرا فى بيتها . يناديه بنداء الله : ﴿ياأيها المزمل قم الليل إلا قليلا......... ﴾

﴿ يا أيها المدثر قم فأنذر ﴾ :

وهى ترى رضى الله عنها كيف كان الرسول يقوم الليل ويتلو القرآن وكيف صدع بما أمر به وأنذر عشيرته الأقربين.

رأت كيف كان جحود الجاحدين وتكذيب المكذبين وإنكار المبطلين.

وكيف كان الأذى يقع منهم على من آمن بالرسول واستجاب لدعوته.

ولقد لقى الرسول ﷺ من الأذى والشده مالقى .

خصوصا إذا ذهب إلى الصلاة عند البيت.

وكان من أعظمهم أذى لرسول الله جماعة تسمُّوا لكثرة أذاهم بالمستهزئين:

أولهم وأشدهم . أبو جهل عمرو بن هشام . وأبو لهب بن عبدالمطلب عم رسول الله وعقبة بن أبى معيط ، والعاص بن وائل السهمى القرشى والد عمرو بن العاص وغيرهم.

ومنهم من كان جاراً لرسول الله كأبى لهب وعقبة بن معيط.

كان أبو لهب يرمى القذر على بابه. فكان رسول الله ﷺ يطرحه ويقول:

يابنى عبد مناف أىُّ جوار هذا ؟!

وكانت تشاركه فى قبيح عمله زوجه أم جميل بنت حرب بن أمية

فكانت كثيرا ما تسبُّ رسول الله وتتكلم فيه.

وكان عقبة ابن أبى معيط الجار الثانى لرسول الله وكان يعمل معه كأبى لهب ومن أشد ما صنعه هذا الشقى برسول الله ما رواه البخارى فى صحيحه.

قال : بينما النبى يصلى فى حجر الكعبة إذ أقبل عقبة ابن أبى معيط فوضع ثوبه فى عنق رسول الله فخنقه خنقا شديدا.

فاقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ودفعه عن النبى وقال :

﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾

(غافر : ٢٨)

ومن أذيته للرسول ﷺ ما حكاه عبدالله بن مسعود من رواية البخارى رضى الله عنه:

قال : كنا مع رسول الله فى المسجد وهو يصلي.

فقال أبو جهل : ألا رجل يقوم إلى فرث جزور بنى فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد ؟

فقام عقبة بن أبى معيط وجاء بذلك الْفَرْث فالقاه على النبى ﷺ وهو ساجد، فلم يقدر أحدٌ من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على إلقائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوّهم.

ولم يزل ﷺ سَاجِداً حتى جاءت فاطمةُ بنتُ رسول الله فأخذت القذر ورمته فلما قام دعا على من صنع هذا الصنيع القبيح فقال : اللّهم عليك بالملأ من قريش وسمّى أقواماً . قال ابن مسعود: فرأيتهم قتلوا يوم بدر.

والرسول صلّى الله عليه وسلم يلقى ما يلقاه من أذى فى مكة

وخديجة رضى الله عنها تعلم بكل ما يلاقيه وهى توقن كلَّ اليقين أن الله ناصــره وحــافظه وهى التــى قــالــت له من قـــبل «والله ما يخزيك الله أبدا».

والرسول ﷺ يذكر صنيـعها ويثنى عليهـا وهو يعرفـ قدرها عند ربها.

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن عليها الثناء.

فذكرها يومـا من الأيام فادركتنى الغيـرة فقلت : هل كانت إلا عجوزا قد أخلف الله لك خيراً منها ؟

قالت : فغضب حتى اهتزَّ مقدم شعره من الغضب.

ثم قال : لا والله ما أخلف الله لى خيراً منها.

لقد آمنت بى إذ كفر الناس،

وصدقتنى إذ كذبنى الناس،

وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس،

ورزقنى الله عز وجل أولادها إذ حرمنى أولاد النساء.

قالت : فقلت بينى وبين نفسى لا اذكرها بسوء أبدا».

هكذا كانت خـديجة رضى الله عنها لهـا شأنها ومكانتـها عند رسول الله .

ولها أجرها وفضلها عن ربهـا لقد جاءها السَّلاَمُ من ربِّها ومن جبريل وهى فى بيتها.

روى البخارى عن أبى هريرة قال:

اتى جبريل النبى ﷺ فقال : يارسول الله هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب.

فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السَّلاَم من ربِّها ومِنِّى وبشِّرها ببيت فى الجنة من قصب ، لا صَخَب فيه ولا نَصَب.

لقد أقامت خديجة رضى الله عنها مع رسول الله ﷺ اربعا وعشرين او خمسا وعشرين سنة توفيت فى رمضان سنة عشر من النبوة بمكة المكرمة.

رأينا كيف تزوجها الرسول ﷺ وكيف عرفته فخطبته لنفسها.

تزوج الرسول ﷺ بعد خديجة سودة بنت زمعة بن قيس بن عبدشمس كانت قبل النبى ﷺ تحت السكران بن عمرو.

اسلمت ثم أسلم زوجها لترغيبها إياه فى الاسلام.

وهاجرت إلى الحبشة مع زوجها وامها.

توفى السكران بالحبشة فتزوجها رسول الله ﷺ سنة عشر من النبوة بعد وفاة خديجة لينقذها من بؤس الترمل وشماتة أهلها.

كانت ابنه خمسين عاما حين تزوجها الرسول وبقيت معه أربعة عشر عاما

جعلت سودة يومها لعائشة بعد سنوات رضى الله عنها.

ثم تزوج عائشة رضى الله عنها فى شوال سنة عشر من النبوة بمكة وبنى بها فى شوال سنة إحدى من الهجرة بالمدينة المنورة.

روى البخارى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ .

«أريتك فى المنام ثلاث ليالى ، جاءنى بك الملك فى سرقة من حرير.

فيقول : هذه امرائك ، فأكشف عن وجهك

فإذا أنت هي، فأقول : إن يك هذا من عند الله يمضه»

ورد فى فضلها أحاديث كثيرة منها.

ما رواه البخارى عن أم سلمة أم المؤمنين رضى الله عنها قال النبى ﷺ :

«والله ما نزل عليّ الوحى وأنا فى لحاف امرأة منكن غيرها»

وقد أمر النبى ﷺ فاطمة رضى الله عنها بأن تحب عائشة.

ففى صحيح مسلم قال النبى ﷺ لفاطمة:

«أى بنية ألست تحبين ما أحب ؟ فقالت : بلي.

قال : فأحبى هذه»

ويدل على فضل عائشة رضى الله عنها ما ورد فى الصحيحين أن النبى ﷺ قال لها «ان جبريل يقرأ عليك السلام» قالت : قلت وعليه السلام ورحمة الله وبركاته.

ثم تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنها.

تزوجها الرسول فى شعبان سنة ثلاث من الهجرة.

كانت قبل رسول الله تحت خنيس بن حذافة بن قيس.

وكان ممن تقدموا فى الإسلام هاجر هجرتين الى المدينة،

وشهد بدراً واحدا واصيب فى غزوة أحد فتوفى بالمدينة.

ولما تايمت حفصة ذكرها عمر لأبى بكر وعرضها عليه فلم يرجع ابو بكر كلمة فغضب من ذلك عُمر.

ثم عرضها على عثمان حين ماتت رقية بنت رسول الله ﷺ .

فقال عثمان : ما اريد أن أتزوج اليوم.

فانطلق عمر إلى رسول الله ﷺ فشكا عثمان وأخبره بعرضه حفصه عليه فقال رسول الله ﷺ .

«يتزوج حفصة من هو خير من عثمان ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة».

ثم خطبها إلى عمر فتزوجها رسول الله ﷺ .

فلقى ابو بكر عمر بن الخطاب فقال له : لا تجد علَيّ فى نفسك فإن رسول الله كان ذكر حفصة فلم أكن لأُفشى سرّ رسول الله ﷺ ولو تركها لتزوجتها .

أثنى عليها جبريل فقال : إنها صوامة قوّامة وإنها زوجتك فى الجنة.

وفى سنة ثلاث من الهجرة.

تزوج الرسول ﷺ زينب بنت خزيمة رضى الله عنها.

وكانت تدعى أم المساكين فى الجاهلية.

تزوجها أولا طفيل ثم تزوجها عبيده وهما ابنا الحارث بن عبدالمطلب عم النبى ﷺ ثم تزوجها عبدالله بن جحش ابن عمة النبى ﷺ وأخو زينب بنت جحش أم المؤمنين رضى الله عنها فلما

استشهد عبد الله بن جحش فى غزوة أحد تزوجها النبى ﷺ وعاشت بعد النكاح شهرين أو ثلاثة أشهر وهى اخت ميمونة لأم

ثم تزوج الرسول ﷺ أم سلمة هند رضى الله عنها سنة أربع من الهجرة.

وكانت قبل النبى ﷺ عند أبى سلمة بن عبدالأسد.

وهى ممن اسلم قديما وأسلم أبو سلمة بعد عشرة رجال.

وكانت أمه برّه بنت عبدالمطلب عمة رسول الله ﷺ

ورسول الله ﷺ وحمزة وأبو سلمة كلهم اخوه من الرضاعة

هاجرت مع زوجها الى الحبشة ثم عادا الى مكة.

ولما أراد أبو سلمة وأم سلمة الهجرة إلى المدينة مع ولدهما سلمة انتزع أهل أبى سلمة من أبى سلمة ولده وقالوا : اذهب أنت وحدك وليس لك من الابن شئ فانه منّا.

وكذلك انتزع منه أهلُ أم سلمة أمَّ سلمة وقالوا : ليس لك منها شئ.

وكان ابو سلمة رجلا قوى الاسلام راسخ العزم فأبى إلا أن يهاجر إلى المدينة المنورة فأخذ سبيله إلى الله ورسوله.

وبقيت أم سلمة فى مكة وكانت تخرج كل غداة وتجلس بالمكان الذى كانت فارقت به زوجها ومازالت تبكى طوال السنة.

ثم خرجت أم سلمة مهاجرة إلى المدينة وخرج معها عثمان بن أبى طلحة وكان يومئذ كافراً.

فكان ينزل بناحية منها إذا نزلت ويسير معها إذا سارت

ويرحل بعيرها وينتحى إذا ركبت.

فلما نظر إلى نخل المدينة قال لها هذه الأرض التى تريدين ثم سلّم عليها وانصرف.

شهد أبو سلمة بدرا وجُرح يوم أحد جُرْحا اندمل ثم انتقض فمات منه وكان يقول : اللهم اخلفنى فى أهلى بخير وقد خلّفَ وراءه أطفالاً صغاراً.

ثم تزوج رسول الله أم سلمة لحبه لأبى سلمة الذى التزم الصدق والاستقامة فى سبيل الاسلام وقد تحملت أم سلمة الشدائد فى سبيل الهجرتين إلى الحبشة وإلى المدينة.

وكان عمر وسلمة وزينب ودرة ربيب رسول الله ﷺ ترعرعوا تحت رعايته.

وتزوج زينب بنت جحش سنة خمس من الهجرة

هى زينب بنت جحش وأمها اميمة بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ كانت قبل النبى ﷺ تحت زيد بن حارثة الذى ينتهى نسبه إلى قضاعة . ونسب أمه إلى معن بن طى .

احتمله قوم فى الجاهلية وهو يومئذ غلام .

فوافوا به سوق عكاظ فعرضوه للبيع فاشتراه منهم حكيم بن حزام لعمته خديجة .

فلما تزوجها رسول الله وهبته له فقبضه رسول الله ﷺ .

فخرج والده وعمه حارثة وكعب ابنا شرحبيل بفدائه وقدما مكة فسألا عن النبى ﷺ فدخلا عليه وقالا له :

جئناك فى ابننـا عندك فامن علينا وأحسن إليـنا فى فدائه لكن زيد بن حارثه أبى أن يذهب مع أبيـه واختار البقـاء مع رسول الله وكان زيد يُدعى بن محمد لحبِّ رسول الله له .

تزوج زيد زينب بنت جحش وكـان لزواجها وطلاقـها من زيد آيات وأحكام أصلح الله بها عادات كانت شائعـة ببركة زواجها من رسول الله بأمر الله . وكانت تفـخر بذلك وتقول « أنا التى زوّجنى ربى » .

نعم : هى التـى زوجـهـا ربُّهـا وأنزل فى شـأنهـا آياتٍ تُتْلَى وأحكام.

وتزوج رسول الله جويرة بنت الحارث بـن ضرار بن حبيب بن عائذ بن مالك بن جذيمة . وجذيمة هو المصطلق بن خزاعة .

سـبـاها رسـول الله ﷺ يوم المر يسـيع فى سنـة خـمس من الهجرة.

وكانت قـد وقعت فى سهم ثابت بن قـيس بن شماس فكاتبـته على نفسـها .

فاتت رسول الله تستعينه على كتـابتها فقالت : إنى مسلمة ، ثم اخبرت انها بنت الحارث بن ضرار سيد قومه .

فقال لها : « هل لك فى خير من ذلك » ؟

قالت : وما هو يا رسول الله ؟

قال : « اقضى كتابتك وأتزوجك » .

قالت : نعم

قال : « قد فعلت » .

وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله تزوج جويرية بنت الحارث .

فقال الناس : صهر رسول الله ﷺ فأرسلوا ما فى أيديهم من سبايا بنى المصطلق .

قالت عائشة : « فلا نعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها» .

وكانت جويرية عابدة زاهدة .

عن جويرية رضى الله عنها أن النبى ﷺ خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهى فى مسجدها ، ثم رجع بعد أن أضحى وهى جالسة قال : « ما زلت على الحال التى فارقتك عليها » .

قالت : نعم .

قال النبى ﷺ : « لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات .

لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن سبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته » .

تزوجها الرسول ﷺ سنة خمس من الهجرة .

ثم تزوج أم حبيبة : رملة بنت أبى سفيان بن حرب سنة ست من الهجرة أسلمت قديماً وكانت أولا عند عبيد الله بن جحش وكان قد هاجر إلى أرض الحبشة مسلما ثم تنصر هناك . وبقيت أم حبيبة مسلمة بأرض الحبشة تركت أباها وعشيرتها ووطنها فى سبيل الإسلام .

وكان زوجها معها فى الهجرة ولكنه ارتد فلم يكن لها أحد ولما بلغ ذلك رسول الله ارسل عمرو بن أمية الفهرى إلى النجاشى بأن يبلغ أم حبيبة خطبة النبى ﷺ .

فارسل إليها النجاشى جارية له كانت تقوم على ثيابه ودهنه وكانت أم حبيبة قد رأت فى المنام ان احداً يناديها بأم المؤمنين .

ولما سمعت خبر رسول الله ﷺ شكرت الله وأعطت الجارية سوارين من فضة كانتا عليها . وخواتيم من فضة كانت فى اصابعها سروراً بما بُشِّرت به .

ثم أمر النجاشى بحضور جعفر بن أبى طالب ومن معه من المسلمين .

وخطب النجاشى فقال : الحمد لله الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر . اشهد أن إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله . وأنه الذى بشّر به عيسى بن مريم ﷺ . أما بعد :

فإن رسول الله كتب إلى أن ازوّجه أم حبيبة بنت أبى سفيان .

فاجبت ما دعا إليه رسول الله ﷺ وقد أصدقتها اربع مائة دينار.

ثم سكب الدنانير بين يدى القوم .

فتكلم خالد بن سعيد فقال : الحمد لله أحمده واستعينه ، واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . أرسله الله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . أما

بعد :

فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وزوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان فبارك الله لرسوله عليه السلام .

ودفع النجاشى الدنانير إلى خالد بن سعيد فقبضها ثم أرادوا أن يقوموا فقال : اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يؤكل طعامٌ على التزويج فدعا بطعامٍ فأكلوا ثم تفرقوا .

وكانت أم حبيبة طيبة النفس حميدة الصفات . وكانت جوادة شجاعة .

روى ابن اسحاق : أن أبا سفيان لما قدم المدينة دخل على ابنته أم حبيبة فلما ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه .

فقال: يا بنية ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟

قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ .

قال : والله لقد أصابك يا بنية بعدى شر .

قالت عائشة رضى الله عنها : دعتنى أم حبيبة عند موتها فقالت : قد كان يكون بيننا ما يكون بين الضرائر فغفر الله لى ولك ما كان من ذلك فقلت : غفر الله لك ذلك كلّه وتجاوز وحلّك من ذلك كلّه .

فقالت : سررتنى سرّك الله .

وأرسلت إلى أمّ سلمة فقالت لها مثل ذلك

ثم تزوج صفية رضى الله عنها سنة سبع من الهجرة :

وهى صفية بنت حيى بن اخطب بن شعبة بن ثعلبة من بنى اسرائيل من سبط هارون بن عمران وامها بّره بنت سمَوال .

كانت اولا عند سلام بن مشكم ثم خلف عليها كنانة بن ابى الحقيق فقتل يوم خيبر .

وكانت صفية من سبايا خيبر .

اصطفاها الرسول ﷺ لنفسه فأسلمت وأعتقها .

وجعل عتقها صداقها .

ويروى أن رسول الله دخل على صفية وهى تبكى فقال لها : « ما يبكيك » .

قالت : بلغنى أن عائشة وحفصة تنالان منى وتقولان نحن خير من صفية ، نحن بنات عم رسول الله وأزواجه . قال ﷺ : « ألا قلت لهن كيف تكن خيراً منى وأبى هارون وعمى موسى وزوجى محمد » صلى الله على سيدنا محمد وعلى هارون وموسى ورسل الله جميعا .

وروى أن النبى ﷺ خيّرها بين أن يعتقها فترجع إلى من بقى من أهلها أو تسلم فيتخذها لنفسه .

فقالت : أختار الله ورسوله .

وتزوج الرسول ﷺ ميمونه بنت الحارث سنة سبع من الهجرة

وهى ميمونه بنت الحارث بن حزن بن بحير بن الهرم

كانت قبل النبى ﷺ تحت ابى رهم ابن عبد الغرى .

وكانت قبل أبى رهم عند حويطب بن عبد الفرى .

كانت قد تأيمت حين خرج النبى ﷺ معتمرا سنة سبع .

فذكرها العباس لرسول الله ﷺ فتزوجها النبى ﷺ .

وهى اخت لبابة والدة ابن عباس رضى الله عنهما لأبيها وأمها .

وأخت زينب بنت خـزيمـة لأمهـا التى تزوجت رسـول الله ﷺ سنةثلاث من الهـجـرة وأقامت عـنده ثلاث أشهـر ثم توفـيت من عامها هذا .

تلك بيوت النبى ﷺ التى ارتـبطت بها أحكام ونزل فيهـا قرآن وخـوطبت نسـاءُ النبى ﷺ بما خـوطبن به من أيات الله والحكمـة وخيِّرن فاخترن فكنَّ بما اخترن أُمهات المؤمنين .

وكان لاختيـارهن شـأنٌ أىٌّ شـأن فى طهر البيوت واستقـامتها حيث اخترن الله ورسوله والدار الآخرة .

وكنَّ ـ بما اخترن ـ أسوةً لبناتهن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها



آيات الله والحكمة تتلى فى بيوت النبى

١٦ - آيات الله والحكمة فى بيوت النبى :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (٣٠) وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُّؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١) يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤) ﴾ (الأحزاب : ٢٨ ـ ٣٤)

الرسول ﷺ يتلو على نسائه ما أنزل الله فى شأنهن وما أنزله الله ـ فى شأنهن ـ يُتْلَى على الناس جميعا وفى ذلك دلالات لا تخفى على من أحسن التدبر :

أولا : أن الله عز وجل قد أمر رسوله ﷺ بأن يُخيِّر نساءه بَيْن أن يفارقهن فيذهبن إلى غيره ممن يحصل لهن عنده الحياة الدنيا

وزينتهـا وبين الصبر على ما عنده من ضـيق الحال ولهن عند الله تعالى الثواب الجزيل .

فاخترن رضى الله عنهن وأرضاهن الله ورسوله والدار الآخرة.

فجمع الله تعالى لهن بعد ذلك بين خير الدنيا وسعادة الآخرة .

روى الإمام أحمد عن جابر رضى الله عنه أن أبا بكر رضى الله عنه يستـاذن رسـول الله ﷺ والناس ببـابـه جلوس والنبى ﷺ جالس فلم يُؤذَن له .

ثم أقبل عمر رضى الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له .

ثم أذن لأبى بكر وعـمر رضى الله عنـهمـا فدخـلا والنبى ﷺ جالسٌ وحوله نساؤه وهو ﷺ ساكت .

فقال عمر رضى الله عنه لاكلّمن النبى ﷺ لعلّه يضحك .

فـقال عـمـر رضى الله عنه : يا رسـول الله لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتنى النفقة آنفاً فوجأت عنقها .

فـضـحك النبى ﷺ حـتى بدت نواجـذه وقـال : « هنَّ حـولى يسألننى النفقة » .

فقام أبو بكر رضى الله عنه إلى عائشة ليضربها .

وقام عمـر رضى الله عنه إلى حفصة ، كلاهمـا يقولان تسألان النبى ﷺ مـا ليس عنده فنهاهمـا رسول الله فقلن : والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده .

قال : وأنزل الله عز وجل الخيار .

فبدأ بعـائشة رضى الله عنها فقال : إنى أذكـر لك أمرًا ما أحب

أن تعجلى فيه حتى تستامرى أبويك ».

قالت : وما هو ؟

قال : فتلا عليها « يا أيها النبى قل لأزواجك » الآية .

قالت عائشة رضى الله عنها : أفيك استأمر أبوى ؟

بل أخـتار الله تعـالى ورسـوله . وأسـالك ألا تذكر لامـرأة من نسائك ما اخترتُ .

فقال ﷺ : « إن الله تعـالى لم يبعثنى معنفا ولكن بعـثنى معلما ميسرا ، لا تسألنى امرأة منهن عما اخترت إلاَّ أخبرتها » .

كلهن قَد اخترن الله ورسوله والدارة الآخرة :

قال عكرمة : وكان تحته يومئذ تسع نسوة .

خـمس من قريش : عـائشـة وحفـصـة وأم حبـيـبة وسـودة وأم سلمـة رضى الله عنهن وكـان تحتـه ﷺ صـفيـة بنت حـيى النضـيرية ، ومـيمـونة بنت الحارث الهـلالية وزينب بنت جـحش الاسـدية ، وجـويرية بنت الحـارث المصـطلقـية رضى الله عنهن وارضاهن أجمعين وفى اختيارهن ما اخترن - وفرح الرسول ﷺ بما اخـترن بيـانٌ لما يجب أن يُؤْثَرَ دائمـا ويُطلب . وفيـه تبصـرة وتذكرة لمن خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى .

ثانيا : أن الرسول ﷺ - وهو يخيّر نساءه - يعلم ما هو أفضل لهن لكنه ترك ذلك لاختيارهن .

حيث اخترن وهنَّ يعلمن عظم ما اخترن .

وكانت حياتهن مع رسول الله ﷺ بل حيـاة الرسول معهن كما



قالت عائشة رضى الله عنها :

« لم يمتلئ جوف النبى عليه الصلاة والسلام شبعا .

ولم يبثّ شكوى إلى أحد .

وكانت الفاقةُ أحبّ إليه من الغنى .

وإن كان ليظل جائعاً يلتوى طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه .

ولو شاء سأل ربه جميع كنوز الأرض وثمارها ورغد عيشها .

ولقد كنتُ أبكي رحمةً له مما أرى به ، وأمسح بيدي على بطنه مما أرى به من الجوع .

وأقول : نفسى لك الفداء لو تبلّغت من الدنيا بما يقوتُك .

فيقول : يا عائشة ما لى وللدنيا ، اخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا . فمضوا على حالهم فَقَدموا على ربهم فأكرم مآبهم ، وأجزل ثوابهم ، فأجدنى استحى إن ترفّهت فى معيشتى أن يُقَصّر بى غَدًا دونهم .

وما من شئ هو أحبُّ إلى من اللحوق بإخوانى وأخلائى .

قالت : فما أقام بعد إلا شهراً حتى توفى صلوات الله وسلامه عليه .

ثالثا : إن نساء النبى ﷺ قد أُمِرْن أن يذكرن ما يتلى فى بيوتهن من آيات الله والحكمة .

فماذا صنعت آيات الله فى زوجات النبى وهن يسمعن ما يتلى من آيات الله ؟

وما ذا صنعت الحكمة فيهن وهن يبصرنها قولاً وعملا فى حياة رسول الله ؟

عن أم ذرّة وكانت تغشى عائشة قالت : بعث إليها ابن الزبير بمال فى غرارتين .

قالت : أراه ثمانين ومائة الف .

فدعت بطبق وهى يومئذ صائمة فجلست تقسمه بين الناس فأمست وما عندها من ذلك درهم .

فلما أمست قالت : يا جارية هلمّى فطرى .

فجاءتها بخبز وزيت .

فقالت لها أم ذرة أما استطعت مما قسمت اليوم أن تشترى لنا بدرهم لحما نُفطر عليه ؟

فقالت لها : لا تُعنفينى لو كنت ذكّرتنى لفعلت .

وعن عروة قال : لقد رأيت عائشة تُقسم سبعين ألفا وهى ترقع درعها .

تلك قدوة عائشة ـ وقد جاءتها الدنيا طائعة ـ برسول الله ﷺ لم تُبق لنفسها ـ ومعها جاريتها ـ درهماً واحداً تشترى به لحما تُفطر عليه .

وقالت لجاريتها حين لامتها « لا تُعنفينى لو كنتِ ذكّرتنى لفعلت »

وأفطرت بخبزٍ وزيت .

وذاك موقفها بين يدى الله وتأثير القرآن فيها .

عن القاسم قال : كنت إذا غدوت أبدأ ببيت عائشة أسلّم عليها .

فغدوت يوماً فإذا هى قائمة تسبّح وتقرأ :

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الطور : ٢٧)

وتدعو وتبكى وتردّدها .

فقمت حتى مللت القيام فـذهبت إلى السوق لحاجتى ثم رجعت فإذا هى قائمة كما هى ، تصلى وتبكى ..

ولم يكن تاثيـر القرآن فى عبـادتها وانابتهـا لربها فـحسب بل كان له تاثيره فى فقهها وبلاغتها .

عن عروة عن ابيـه قال : ما رأيت أحـداً من الناس اعلم بالقرآن ولا بفريضة ولا بـحلالٍ ولا بحرام ولا بشعرٍ ولا بحـديث العرب ولابنسب من عائشة رضى الله عنها .

كتبت عائشةُ إلى معاوية : « اما بعد فإن العبد إذا عمل بمعصية الله عز وجل عاد حَامدُهُ من الناس ذَاماً » .

وعن ابراهيم عن عائشـة رضى الله عنها قـالت : إنكم لن تُلْقوا الله بشئ خـيـرٍ لكم من قلة الذنوب فـمن سـّره أن يَسْـبِق الدائب المجتهد فليكفّ نفسه عن كثرة الذنوب » .

إن زوجاتِ الـرسول ﷺ خُيِّـرنَ فاخـترن الله ورسـولهَ والدار الآخرة اخترنَ ذلك عن إيمان ورضىً ويقـين وهن يعرفن فضلَ ما اخترنه فمع ما وسّع الله من الرزق وأكثر من الخير لم يأخذن منه شيئاً لانفسـهن .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كانت زينب بنت جحش هى التى كانت تسامينى من أزواج النبى ﷺ فعصمها الله عز وجل بالورع ولم أر امرأة أكثر خيراً واكثر صدقة وأوصل للرحم وأبذل لنفسها فى كل شئ يتقرب به إلى الله عز وجل من زينب .

وعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ لأزواجه : أولكن يتبعنى أطْوَلُكُنَّ يداً .

قالت عائشة : فكنا إذا اجتمعنا بعد وفاه رسول الله ﷺ نمد أيدينا فى الحائط نتطاول ، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش . وكانت امرأة قصيرة ولم تكن أطولنا يداً . فعرفت أن النبى ﷺ أراد بطول اليد الصدقة .

وكانت امرأة صناعا وكانت تعمل بيدها وتتصدق فى سبيل الله عز وجل .

اخترن جميعهن وصَدَقْنَ فيما اخترن فلم تستطع الدنيا وقد فتحت على المسلمين أن تغيّرهن عما اخترن أو تبعدهن عما آثرن .

روى أحمد عن مصعب بن سعد : قال : قالت حفصة لعمر رضى الله عنه : يا أمير المؤمنين اكتسيت ثوبا هو ألين من ثوبك ، وأكلت طعاما هو أطيب من طعامك .

فقد وسّع الله من الرزق وأكثر من الخير .

فقال : ساخاصمك إلى نفسك .

أما تذكرين ما كان رسول الله ﷺ يلقى من شدة العيش وكذلك أبو بكر ؟ فما زال يذكرها حتى أبكاها .

فقال لها : أمـا والله لاشاركنهما فى مثل عيشـهما الشديد لعلى أدرك عيشهما الرّخى » .

إنّ حفصة رضى الله عنها تسأل عمر رضى الله عنه أن يكتسى ثوبا ألين من ثوبه وأن يأكل طعاماً اطيب من طـعامه بعد أن وسّع الله من الرزق وأكثر من الخير فخاصمها إلى نفسها فَخَصَمَهَا حين ذكّرها بحياتها مع رسول الله ﷺ وما كان فيه من شدة العيش .

نفوس اعـتزت بربهـا فأعـزّها الله ولم تستطع الدنيـا بفتنتـها وزينتها أن تصرفهم عن زهدهم فيها وابتغائهم مرضات الله .

في روضة القرآن

الحديقة ينزل الله فيها قرآنا يتلى

١٧ - الصديقة ينزل الله فيها قرآناً يتلى :

حين قال فيها أهل الإفك ما قالوا فبرأها الله مما قالوا .

قالت عائشة رضي الله عنها : كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه .

فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسولُ الله معه .

فلما كانت غَزْوَةُ بنى المصطلق أقرع بين نسائه كما كان يصنع.

فخرج سهمى عليهن معه . فخرج بى رسول الله ﷺ .

قالت : وكان النساءُ إذ ذاك إنما يأكلن العُلَقَ [1] لم يُهَيِّجْهُنَّ اللَّحْمُ فيثقلن .

وكنْتُ إذا رُحِّل لى بعيرى جلَسْتُ فى هَوْدجى .

ثم يأتى القوم يُرَحِّلون لى ويحملوننى . فيأخذون بأسفل الهودج فيرفعونه فيضعونه على ظهر البعير فيشدونه بحباله . ثم يأخذون برأس البعير فينطلقون به .

قالت : فلما فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك وَجَّهَ قافلا حتى إذا كان قريبا من المدينة نزل منزلا فبات به بعض الليل.

ثم أذّن فى الناس بالرحيل ، فارتحل الناس وخرجت لبعض حاجتى .

(١) العلق : ما فيه بلغة من الطعام إلى وقت الغذاء تريد أن طعامهن كان قليلا فهن نحيفات غير بدينات .

وفى عنقى عِقْـدٌ لى فيه جَـزْعُ ظفار[1] ، فلما فَـرَغْتُ انْسَلَّ من عُنُقى ولا أدرى

فلما رجـعتُ إلى الرحل ذهبت التمسه فى عنقى فـلم أجده وقد أخذ الناس فى الرحيل .

فرجعت إلى مكانى الذى ذهبتُ إليه فالتمسته حتى وجدتُه .

وجاء القوم خـلافى الذين كانوا يُرَحِّلُونَ لىَ البعير وقـد فرَغوا من رحلته .

فأخذوا الهودج وهم يظنون أنى فيه كما كنتُ أصنع .

فاحتملوه فشدوه على البعير ولم يَشُكُّوا انى فيه .

ثم أخذوا برأس البعير فانطلقوا به .

فرجـعت إلى العسكر ومـا فيـه من داعٍ ولا مجيب . قـد انطلق الناس .

قالت : فَتَلَفَّفْتُ بِجِلْبَابِى ثم اضطجعت فىَ مكانى .

وعرفتُ أن لو قد افْتُقِدْتُ لَرُجِعَ إلىَّ .

قالت: فو الله إنى لَمُضْطَجِعَةٌ إذ مَرَّ صفوانُ بن المُعَطَّل السُلَمىُّ.

وقـد كان تَخَلَّـف عن العسكر لـبعض حـاجـاته . فلم يَبِتْ مع الناس .

فرأى سوادى ، فأقبل حتى وقف علىّ .

وقد كان يرانى قَبْلَ أن يُضْرَبَ علينا الحجاب .

---

(١) الجزع : الخرز : وظفار اسم مدينة

فلما رآنى قال إنا لله وإنا إليه راجعون . ظعينة رسول الله ، وأنا متلففة فى ثيابى .

قال ما خَلَّفك يَرْحَمك الله ؟

قالت : فما كلمته .

ثم قَرَّب البعير فقال : اركبى واستأخَر عنِّى .

قالت : فركبتُ وأخَذَ برأس البعير .

فانطلق سريعا يطلبُ الناس فوالله مـا أدركنا الناس وما افتُقِدتُ حتَّى أصبحتُ ونزل الناس .

فلما اطمأنُّوا طلع الرجلُ يُقودُنى .

فقال أهل الافك مـا قالوا . فارتعج [1] العسكر ، ووالله ما أعلم بشئٍ من ذلك .

ثم قَـدمنا المدينة فلم ألبث أن اشـتكيتُ شكوى شـديدة ، ولا يبلغنى من ذلك شئ .

وقد انتهى الحـديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبَوَى . لا يذكرون لى منه قليلاً ولا كثيراً .

إلاّ أنى قد أنكرتُ من رسول الله ﷺ بَعْض لُطْفه بى .

كُنْتُ إذا اشـتكيت رَحِـمَنِى ولَطف ، فـلم يفـعـل ذلك بى فى شكْوَاى تلك .

فأنكرتُ ذلك منه .

---

(١) ارتعج العسكر : تحرك واضطرب .

كان إذا دَخل علىَ وعندى أمِّى تمرضنى قـال : « كيف تيكم » ؟ لا يزيد على ذلك

قالت : حتى وجدت فى نفسى . فقلت : يا رسـول الله ـ حين رأيت مـا رأيتُ من جـفـائه لى ـ لو أذنت لى فـانتـقلت إلى أمِّى فمرضتنى ؟

قال : « لا عليك » .

قالت : فانتقلتُ إلى أمى ولا أعلم بشئ مما كان .

حتى نَقِهْتُ من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة .

وكنَّا قوما عَرَباً ، ولا نَتَّخِـذُ فى بيوتنا هذه الكُنُفَ التى تتخذها الأعاجم نعافُها ونكرهها إنما كنا نذهب فى فُسَح المدينة .

وأنما كانت النساء يخرجن كل ليلة فى حـوائجهن فخرجت ليلة لبعض حـاجتى ومعى أمُّ مِسْطح بنتُ أبى رُهْم بن المطلـب بن عبد مناف . وكانت إنَّها بنتَ صَخر بن عامر بن كعب بن سعيد بن تيم خالة أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

قالت : فـوالله إنَّها لتمـشى معى إذْ عَثَـرت فى مِرْطها فـقالت : تَعِسَ مسْطح (ومسطح لقب ، واسمه عوف) .

قالـت : قُلْتُ : بئس لَعَمْـرُ الله ما قُلْتِ لرجل من المـهاجريـن قَد شهد بَدْراً .

قالت: أوما بلَغَك الخبر يا بنتَ أبى بكر ؟

قالت : قلتُ : وما الخبر ؟

فأخبرتنى بالذى كان من قول أهل الإفك .

قالت : قلت : أوَقَدْ كان هذا ؟

قالت : نعم ، والله لقد كان .

قالت : فو الله ما قَدَرْتُ على أن أقْضيَ حاجتى ورجعتُ .

فو الله ما زلْتُ أبكى حتى ظننتُ أن البكاء سيصدع كبدى .

قالت : وقلتُ لأمي : يغفر الله لك .

تحدث الناس بما تحدثوا به ولا تذكرين لى من ذلك شيئاً .

قالت : أىْ بنَيَّهُ خَفِّضى عليك الشأن .

فو الله لَقَلَّمَا كانت امرأةٌ حسناء عند رجل يحبها لها ضرائر إلاَّ كثَّرن وكثرُ الناس عليها .

قالت : وقد قام رسولُ الله فى الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس ، ما بَالُ رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق ، والله ما علمتُ منهم إلا خيرا » .

ويقولون ذلك لرجل والله ما علمتُ منه إلا خيرا .

وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى .

قالت : وكان كبْرُ ذلك عند عبد الله بن أبى بن سلُول فى رجال من الخزرج مع الذى قال مسطح وحَمْنة بنت جحش ، وذلك أن أُخْتها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ . ولم تكن من نسائه امرأةٌ تناصبنى فى المنزلة عنده غيرها .

فأما زينب فعصمها الله تعالى بدينها فلم تقل إلاَّ خيراً .

وأما حَمْنَه بنت جحش فأشاعات من ذلك ما أشاعت تُضَادُّنى لأُختها فَشَقَيَت بذلك .

فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة قال أسيدُ بن حضير :

يا رسـول الله ـ إن يكونوا من الأوس نَكْفكَـهُم وإن يكونوا من إخواننا من الخـزرج فَمـرْنا بامرك ، فو الله إنَـهم لأهل أن تُضْرَبَ أعناقهم .

قالت : فقام سعد بن عُبَـادة ـ وكانْ قبل ذلك يُرىَ رجلا صالحا ـ فقال : كذبت ، لعمر الله لا نضرب أعناقهم .

أما والله مـا قُلْتَ هذه المقالةَ إلا أنك قد عـرفت أنهم من الخزرج ولو كانوا من قومك ما قلت هذا .

فقال أسَيّدٌ : كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين.

قلت : وتثـاور الناس حـتى كـاد يكون بين هذين الحـيَّيْن من الأوس والخزرج شرٌ .

ونزل رسوُل الله فَدَخَل علىّ .

فـدعـا علىٌّ بن أبى طالب رضـوان الله عليـه وأسـامـة بن زيد فاستشارهما .

فأمـا أسامة فـأثنى علَىَّ خيـراً وقاله ، ثم قـال : يا رسول الله اهلُكَ ولا نعلم إلا خـيـراً ، ولا تَعْلَم منهم إلا خـيـراً . وهذا الكذب والباطـل وَأمَّا على فـإنّه قال : يا رسول الله ، إن الـنسـاء لكثـير ، وإنك لقادر على أن تستخلف . وسل الجارية فإنَّها ستَصْدُقُك .

فدعا رسول الله بُرَيْرَةَ ليسألها .

قالت : فـقام إليـها على بن أبـى طالب فَضَـربَها ضَرْبـا شديا ويقول : اصْدُقِى رسول الله .

قالت : فتقول : والله ما أعلم إلاَّ خيراً .

وما كـنت أعيب على عـائشة شـيأ إلاَّ أنى كنتُ أعـجن عجـينى فآمرها أن تحفظه فتنام عنه فتأتى الشاة فتأكله .

قالت : ثم دخل رسول الله ﷺ وعندى أبواى ، وعندى امرأة من الأنصار . وأنا أبكى وهى تبكى معى .

فجلس فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « يا عائشة ، إنه قد كان ما قَدْ بلَغَـك من قول الناس ، فاتَّقى الله فإن كُنْتِ قـد قارفت سُوءاً مما يقول الناس فتوبى إلى الله ، فَإنَّ الله يقبل التوبة عن عباده » .

قـالت : فو الله مـا هو إلاَّ أن قـال لى ذلك فَقَـلَصَ دمعى حـتى ما أحسُّ منه شيئاً ، وانتظـرتُ أبوىَّ أن يُجيبا عنِّى رسول الله ﷺ فلم يتكلما قالت : وايْمُ الله لأنا كنتُ أحقَرَ فى نفسى وأصغَرَ شأناً من أن يُنْزِل اللَّهُ فىَّ قرآناً يُقْرأ به فى المساجد ويُصلَّى به .

ولكنى قد كنتُ أرجو أن يرى رسولُ الله فى نومـه شيئاً يُكَذِّب به الله عنى لماَ يعلم من بَرَاءَتى ، أو يُخْبِرُ خبرا .

فأما قرآن ينزل فىَّ فو الله لَنَفْسى كانت أحْقَرَ عندى من ذلك .

قالت : فلما لم أر أبَوَىَّ يـتكلمان قلت لهما : ألا تجيـبان رسول الله ﷺ .

قالت : فقالا والله ما ندرى بماذا نجيبه .

قـالت : والله مـا أعلـم أهْلَ بيتٍ دخل عليـهـم مـا دخل على آلِ أبى بكر فى تلك الأيام .

قالت : فلما أن استَعْجَما علىَّ استَعْبَرْتُ فبكيت ثم قُلتُ : والله لا أتوب إلى الله مما ذكـرتَ أبداً والله إنى لأعلم لئن أقْرَرْتُ بما يـقول

الناس ـ والله يعلـم أنى منه بريئـة لأقـولن مـا لم يـكن ، ولئن أنا أنكرتُ ما يقولون لا تصدقوننَ .

قالت : ثم التـمست اسم يعقوب فـما أذكره فقلت : ولكن سـأقول كما قال أبو يوسف « فصبرٌ جميلٌ والله المستعان على ما تصفون»

قالت : فو الله مـا برح رسول الله ﷺ مَجْلِسَهُ حـتى تَغَشَّاه من الله ما كان يتَـغَشَّاه ، فَسُجِّىَ بثـوبه ، وَوُضِعَتْ له وِسَادةٌ من أدَم تحت رأسه .

فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت فو الله ما فَزِعتُ وما بَالَيت. قد عرفتُ أنى بريئة ، وأن الله عز وجل غَيْرٌ ظالمِى .

وأما أبواي فو الذى نفس عائشـة بيده ما سُرِّى عن رسول الله ﷺ حتى ظَنَنتُ لتخرجَنَّ أنفُسُهـما فَرَقا من أن يَأْتِىَ مِنَ الله تحقيق ما قال الناس .

قالت : ثم سُرِّى عن رسول الله ﷺ فجلس وإنه يتحَّدر منه مثلُ الجُمان فى يومٍ شات .

وإنى لأتبـين السرور فى وجـهه وهو يمـسح جبينـه ويقول « أبشرى يا عائشة فقد أنزل الله براءتك »

قالت : وكنتُ أشد ما كنتُ غضبا .

فقال لى أبواى : قومى إليه .

فقلت : لا والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحـمدُكما ولكن أحمد الله الذى أنزل براءتى ، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه .

ثم خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل

الله عليه من القرآن فى ذلك ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحسّان بن ثابت وحَمْنَة بنت جحش ـ وكانوا ممن أفصح بالفاحشة ـ فضُربوا حَدّهم .

وكانت عائشة رضى الله عنها تقول : أما زينب بنت جحش فعصمها الله بدينها فلم تَقُل إلا خيراً . وأما أختها حَمْنَة بنت جحش فهلكت فيمن هلك فأنزل اللّهُ عز وجل ﴿ إن الذين جاؤوا بالافك عصبةٌ منكم لا تحسبوه شرًّا لكم بل هو خير لكم لكل امرئٍ منهم ما اكتسب من الاثم والذى تولّى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ (النور : ١١) عشر آيات [1] فى براءة عائشة رضى الله عنها .

فلما أنزل الله تعالى هذه فى براءتى قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ـ وكان ينفق على مسطح ابن اثاثة لقرابته منه وفقره : والله لا انفق على مسطح شيئاً أبداً بعدما قال لعائشة رضى الله عنها .

فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (النور : ٢٢)

فقال أبو بكر رضى الله عنه : بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى . فرجعّ إلى مسطح النفقة التى كان يجرى عليه . وقال : والله

(١)(سورة النور : ١١ ـ ٢١)

لا أنزعها منه أبدا .

إن الذين جاؤوا بالافك لم يكونوا يقصدون رمي عائشة وحدها وإنما يقصدون الرسالة والرسول . يقصدون الكيد للإسلام والاذى لرسول الله ﷺ .

وهم قد ظنوا أنهم بذلك قد اختاروا مقْتلا يبطلون به ما جاء من الحق وقد غاب عنهم أن الله حافظٌ بدينه وإنه بما يعملون مُحيط.

لقد ظلت المدينة شهراً كاملاً ترجُف بما تَقَوَّلوه وأشاعوه .

والطاهرة الطيبة المُبَرَّأة لاَ يَرْقَـأ لها دمع ولا تكتحل بنوم وهى تُرْمى فى أعز ما تملك من شرف وطهر وحُبٌّ لرسول الله ووفاء .

ولقد شاء الله أن يتلبث الوحى شهراً كاملاً وهى تلاقى ما تلاقيه وتقول لأمها فى حزن وأسًى : سبحان الله . وقد تحدث الناس بهذا ؟

وقد علم به أبى ؟ فتجيبها أمها : نعم .

ورسول الله ﷺ ؟ فتجيبها امها نعم كذلك .

الأب والأم ورسول الله ﷺ جميعا قد علموا .

وأولئك الذين يُرجى منهم أن يَرُدُّوا عنها سهام الافك والكيد فلا يستطيعون وهى فتاةٌ صغيرة فى نحو السادسة عشر من عمرها .

وحين قال لها الرسول ﷺ : إن كنت ألمت بذنب فاستغفرى الله.. »

استجارت بأبيها وقالت : أجب عنى رسول الله فيما قال . فقال:

والله ما أدرى ما أقول لرسول الله .

فقالت لأمها : أجيبى عنى رسول فيما قال . قالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله .

والرسول ﷺ لا يستطيع أن يقول إلاّ بما يوحى إليه .

فآوت إلى ربّها وقالت ما قاله يعقوب عليه السلام « فصبرٌ جميل والله المستعهان على ما تصفون » إن الاحتمال الذى كانت عائشة رضى الله عنها تتطلع إليه لإظهار براءتها هو أن يرى الرسول ﷺ فى شأنها رؤيا أو يُخْبر بخبر .

أما أن ينزل فى شأنها قرآنٌ يتلى يُقرأ به فى المساجد ويُصلّى به فذلك ما لم تكن تَظُنُّه .

لذلك عندما أنزل الله فى شأنها قرآنا لهجت بالحمد لربّها ولم تنطق بحمد لأحد سواه .

والرسولَ ﷺ يقدّرُ ذلك منها غاية التقدير .

لا لأنها وضعت الأمور فى موضعها بحسب وهى تحمد ربّها على براءتها بل لأن الحمد لله وحده هو الجدير بأن يكون فى هذا المقام .

وهى بحمدها لله وحده تفى كل الوفاء لرسول الله ولا يغيب عنها أنه المُوحَى إليه بخبر السماء وأنّ فى إعلان براءتها من الله إزهاقاً لكل باطل دُبّر لدين الله فى الخفاء .

إن الآيات التى نزلت فى سورة النور لم تكن تحقيقا لطهر الصديقة وبراءتها فحسب بل كانت بيانا وتشريعا وصيانة للأعراض وردعاً لكلّ تَقوّلٍ بباطل أو سعى لفساد .

فكانت الصديقة مباركة فى محنتها مباركة فى براءتها .

والقرآن يُتلى إلى يوم الدين ليكون تبصرة وذكرى للمؤمنين وإنذارا وردْعا للظالمين المفسدين .

وكم كان لآل أبى بكر فى الإسلام من بركات .

روى مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت : خرجنا مع رسول الله ﷺ فى بعض أسفاره حتى إذا كنا بالبيداء أو بذات الجيش انقطع عقدٌ لى فأقام رسول الله ﷺ على التماسه ، وأقام الناس معه وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء .

فجاء أبو بكر ورسول الله ﷺ واضعٌ رأسه على فخذى قد نام .

فقال : حَبَسْتِ رسول الله ﷺ والناس ، وليسوا على ماء ، وليس معهم ماء .

قالت عائشة : فعاتبنى أبو بكر . وقال ما شاء الله أن يقول ، وجعل يطعننى بيده فى خاصرتى . ولا يمنعنى من التحرك إلاّ مكان رسول الله ﷺ على فخذى .

فقام رسول الله ﷺ حتى أصبح على غير ماء ، فأنزل الله آية التيمم .

فقال أسيد بن حضير : « ما هى بأول بركتكم يا آل أبى بكر »

قالت : فبعثنا البعير الذى كنت عليه فإذا العقد تحته .

إن بيوت النبى قد تربّت كلها على مأدبة القرآن وعملت بوحيه ومن تدبر أمر زواجه بنسائه وعرف حياتهن وما كنّ عليه عرف أن للوحى فى أمرهن شأنا أى شأن ــ وهن يذكرن ما يتلى فى

بيوتهن من آيات الله والحكمة .

تصادقت يوما أم المؤمنين عائشة وزينب رضى الله عنها وتفاخرتا . فبِمَ تفاخرتا ؟

قالت زينب رضى الله عنها : أنا التى زوجنى ربى .. وهى تعنى قول الله عز وجل ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا ﴾

(الاحزاب : ٣٧)

فقالت عائشة رضى الله عنها : وأنا التى برّأنى ربى نزلت براءتى من السماء فى القرآن فسلّمت لها زينب ثم قالت : كيف قُلْتِ حين ركبتِ راحلة صفوان بن المعطل .

قالت عائشة : قلت حسبى الله ونعم الوكيل .

قالت زينب : قلت كلمة المؤمنين : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾

(آل عمران : ١٧٣ ـ ١٧٤)

هل رأيت فى الحوار شيئا بعيداً عن القرآن وفقه القرآن .

وهل رأيت فيما كان بين عائشة وزينب إلاَّ ما تطيب به النفس ويعظُم الوُدُّ وينشرح الصدر وكلتاهما تذكر نعمة الله عليها وتسند الفضل لربها لا لأحدٍ سواه . إن للقرآن الكريم فى حياتهن حياةً أىَّ حياة .

وهن يقرأنه ويرونه عملا وخلُقا فى رسول الله حيث يتلقاه

وحياً نازلا من السماء .

إن زوجات الرسول ﷺ يرين الرسول فى القرآن ويرين القرآن فى رسول الله يرينه فى خاصة نفسه وفى علاقته بغيره .

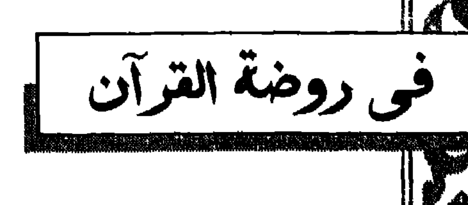
يرينه فى حربه وسلمه وفيمن رباهم من صحبه كما يُرى اثرُ القرآن فيمن آمن به واهتدى بهداه .

إنه القرآن حصنٌ حصين للرسالة والرسول .

به صارت رسالة الرسل جميعا مصونةً من كيد الكائدين وتحريف المبطلين .

وبه يَعْرفُ الناس جميعا كيف يقتدون بهداهم إلى يوم الدين .

سبحان مَنْ حفظه وحفظ به الرسالة إلى يوم الدين .



حقائق ونتائج

١٩ - حقائق ونتائج :

الرسول فى القرآن الكريم حقيقة لا تغيب .

وحيث كان القرآن الكريم خلقاً له عليه الصلاة والسلام فأنت تراه بالقرآن كيف كان ، فلا يصعب عليك أن تتخذه أسوة فى كلّ شأن .

والقرآن الكريم وهو يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم يجعله أمامك - نوراً هاديا - حتى لا تضل السبيل :﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣) ﴾ (الشورى : ٥٢ ٥٣)

وأنت تحب الله يريك الله به كيف تحب ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (آل عمران : ٣١)

وأنت تعبد الله يرشدك به ﷺ كيف تعبد . فتصلى كما كان يصلى وتحج كما أراك كيف تحج . وتصوم - وأنت تدع قول الزور والعمل به - كما علمك الرسول كيف تصوم وأنت تعيش بين أهلك يعلمك كيف تكون خيراً لأهلك .

وأنت تتقلب فى شئون الحياة تنشد رزق ربك يريك كسباً وعملا كيف تكون ثقتك بربك ورضاك عن خالقك فى عسرك

ويسـرك وصحتك ومرضك وغناك وفقرك فتتخذ من صبره وشكره ـ وأنت تأخذ بالأسباب ـ اسوة فى صبرك وشكرك وأنت تقتدى به صلوات الله وسلامه عليه ترى علم الخالق بخلقه فى واقع .

حيث أسرَّ إلى بعض ازواجه حديثا ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ (التحريم : ٣)

ترى ذلك فى وقائع وأحداث من حياة الرسول فى القرآن الكريم .

فيطمئن قلبك بذكر ربك وتنعم بخشيته وتقواه .

وتتعلم منه صلوات الله عليه كيف تعامل الناس إن هم أخطأوا فتعينهم على تجاوز الخطأ ولا تكن عونا للشيطان عليهم .

وقائع وأحداث فى القرآن الكريم ترى الرسول محورها وتراها لا تقف عند زمن وقوعها بل تمتد تبصرتها وعبرتها للزمن كله .

وأنت تقرأ القرآن الكريم فى غزوات الرسول وجهاده ترى كيف كان خلقه فى الجهاد وكيف كان إعداده للنفوس وكيف كان عدله ووفاؤه مع من غدر به أو أساء إليه . فتأخذ للنصر أسبابه وأنت تعلم ـ بتعليمه وتزكيته ـ أنك لن تنصر الله فى معركة حتى تنصره فى نفسك بتغليب أمره على هواك وأنك ما لم تنتصر بفضلك فلن تغلب بقوتك . وأن النصر من عند الله لا من أحد

سواه. فينعم الناس بما فى الجهاد من فضل وهم يرون ثمرته فى اقامة العدل ودحض الفساد والظلم .

تقرأ القرآن عن غزوة بدر فى سورة الأنفال فتجد نفسك مع رسول الله ﷺ منذ أخرجه ربُّه من بيته بالحق إلى أن عاد منتصرا وبيده أسرى بدر وقد ناداه ربُّه : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ ﴾ (الانفال : ٧٠)

فتعلم أن للجهاد غايته وللنصر فريضته وللتمكين حكمته .

﴿ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ ﴿٤١﴾ ﴾ (الحج : ٤١)

فغاية الجهاد إعلاءٌ لكلمة الله وفى اعلاء كلمة الله سلام وأمن لجميع الخلق وفريضة النصر : إقامةٌ لفرائض الله وأمرٌ بالمعروف ونهى عن المنكر وتقدير لعاقبة الأمور ومن مكّن الله لهم فى الأرض واستخلفهم ـ هم بهذا التمكين ممتحنون ومختبرون

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ (يونس : ١٤)

فتتعلم وأنت تصاحب الرسول ﷺ فى غزوة بدر وما وقع فيها دروسا فى حقائق الأشياء تبقى للناس حياة ما بقيت الحياة .

وتقرأ فيما نزل من القرآن فى غزوة أُحد ستين آية من سورة آل عمران .

وترى الرسول ﷺ بين أصحابه منذ خرج من منزله إلى ميدان أحد عند جبلٍ قال فيه ﷺ « جـبل يحبنا ونحبه » مع أنه قد اصيب عنده وشج وجهه وكسرت رباعيته وتعرف ما وقع فيه من أحداث لهـا فى تربية النفـوس وإعدادها شـأن أى شان وكـفاك أن تقـرأ ما قال الله فى شأن رسوله ﷺ : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) ﴾ (آل عمران : ١٤٤)

وذلك عندما وقع الصراخ بأن محمدا قد قتل .

فقال مَن قـال « لو كان نبيا لما قتل ارجـعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم » .

فقال أنس بن الفضل عم انس بن مالك « يا قوم إن كان قد قتل محمـد فإن ربَّ محمـد حى لا يموت . وما تصنعون بالحـياة بعد رسول الله لله قاتلوا على ما قاتل عليـه وموتوا على ما مات عليه » ثم قال « اللهم انى اعتذر اليك مما يقول هؤلاء ثم سلّ سيفه وقاتل حتى قتل » .

بل كفاك أن تعرف الحكمة فيما أصاب المؤمنين وما وقع بهم .

وأن ما أصـابهم كان بمخـالفتـهم النبى ﷺ حيث تـرك الرماة موقعهم الذى أمرهم الرسول ﷺ الا يبرحوا عنه هزم المسلمون أو انتصروا .

وقد عـرّفهم الله سوء عـاقبة المعصـية وشؤم ارتكاب المخـالفة

وذكر ذلك فى كتابه ليكون عبرة لأولى الأبصار فى كل زمان ومكان حيث قال عز وجل : ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) ﴾ (آل عمران : ١٥٢)

ولم تكن المعصية والمخالفة منهم جميعا وإنما كانت من الرماة الذين رأوا مقدمات النصر وانكسار العدو فتركوا الثغرة التى هم عليها فانقض العدوُّ عليهم ووقع البلاء بهم وفى اسناد المعصية إليهم دون تحديد بمن عصى منهم فيه دلالة على ما يجب أن يكونوا عليه جميعا من حسن الاستجابة لله وللرسول والاحتراس من المعصية من أىِّ واحدٍ منهم فإن ذنوب الجند أخوف عليهم من عدوهم فليأخذوا حذرهم من معاصيهم اكثر مما يأخذون حذرهم من عدوهم .

فإن ما وقع بهم كان من عند انفسهم لا من كيد عدوهم .

كما قال الله عز وجل : ﴿ قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ (آل عمران : ١٦٥)

وقع ذلك بهم وفيهم رسول الله ﷺ وقد أصابه ما أصابه ليُعلم أن سنن الله لا تجامل ولا تحابى وأن ما عند الله لا يُطلب إلا بطاعته وإذا كان الله قد ابتلى المؤمنين بذلك وقد عفا عنهم وأعانهم على متابعة عدوهم . فقد كان فى ذلك درسٌ لهم ولمن جاء بعدهم إلى

يوم الدين « والله ذو فضل على المؤمنين » وقد نصرهم بعد ذلك فى مواطن كثيرة بعد تمحيص بالبلاء وابتلاء بالعطاء .

﴿ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ ﴾ (آل عمران : ١٤٠)

وقد رأى المسلمون من رسولهم وهو يناديهم « إلَيَّ عبادَ الله » سكينة وثباتا : ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ﴾ (آل عمران : ١٥٣)

«تُصْعِدونَ » بِضَمِّ التَاء ، وكسرِ العين : بمعنى السير والهرب فى مستوى الأرض ومهابطها وبفتح التاء والعين : من الصعود فى الجبل والشَّرف .

« ولا تلوون على أحد » أى لا ترجعون لأحد من شدة الفرار .

« والرسول يدعوكم فى اخراكم » وقد خلفتموه وراء ظهوركم يدعوكم إلى ترك الفرار من الأعداء .

« فأثابكم غما بغم » جزاكم بفراركم عنه عليه السلام غماً بما نالهم من القتل والهزيمة « بغم » أىْ عَقِبَ غَمٍّ أى كربا بعد كرب . قَتْل من قتل من إخوانكم ، وعلو عدوكم عليكم ، وما وقع فى أنفسكم من قول قُتِل نبيكم .

« لكيلا تأسوا على ما فاتكم » أى على ما فاتكم من الغنيمة والظفر بعدوكم « ولا ما أصابكم » من الجراح والقتل . « والله

خبير بما تعملون » .

وأنت تقرأ القرآن لا ترى شيئا مما وقع يغيب عنك .

بل ترى بالقرآن حقائق حاضرةً باقيةً .

وترى الرسول ﷺ حاضرا يُقتدى به ويُهتدى بهداه .

وترى الذين لم يندمل جراحاتهم فى أحد يستجيبون لرسول الله ﷺ حين دعاهم لمتابعة العدو فى « حمراء الاسد » على ما كان بهم من الالم والجراح .

كانت غزوة أحد يوم السبت وعزوة حمراء الاسد فى اليوم التالى يوم الاحد لست عشرة مضت من شوال على رأس اثنتين وثلاثين شهرا من الهجرة .

لما صلى رسول الله ﷺ الصبح أمر بلالا أن ينادى أن رسول الله يأمركم بطلب العدو والا يخرج احدٌ إلا من خرج معنا امس يعنى من شهد أحداً .

فلم يشهد غزوة « حمراء الاسد » إلا من شهدا أحدا عدا جابر ابن عبد الله فانه قال لرسول الله ﷺ « إن ابى خلفنى يوم أحد على اخوات لى سبع فلم أشهد الحرب ، فاذن لى أن اسير معك فاذن له رسول الله ﷺ ، فلم يخرج معه احدٌ لم يشهد القتال غَيْرُه .

وكان لهذه الغزوة أثرها فى نفوس المشركين إذ فروا هاربين بعد أن كانوا قد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله اصحابه وقالوا : أصبنا محمداً واصحابه وقادتهم واشرافهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ؟ .

ولكن الله القى فى قلوبهم الرعب عندما عرفوا أن رسول الله

يطلبهم .

وقد قال الرسول ﷺ لطلحة : يا طلحة لن ينالوا منا مثلها حتى يفتح الله علينا مكة .

وقال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : يا ابن الخطاب إن قريشا لن ينالوا منا مثل هذا حتى نستلم الركن .

استجاب الصحابة الكرام لرسول الله ﷺ حين دعاهم وكان الرسول ﷺ مجروحا وفى وجهه أثر الحلقتين . وكان من صحابته من اشتد جراحه فلما اذن مؤذن رسول الله بالخروج استجاب للنداء ولم يقعد .

كان فى غزوة أحد اخوان من بنى عبد الاشهل وكانا جريحين :

فلما اذن مؤذن رسول الله بالخروج فى طلب العدو .

قال احدهما لأخيه اتفوتنا غزوة مع رسول الله ﷺ ؟

والله ما لنا دابة نركبها .

وما بنا إلاجريح ثقيل فخرجنا مع رسول الله ﷺ .

قال : وكنت أيسر جراحا من أخى : فكان إذا غلب حملته .

حتى انتهينا إلى ما انتهى إليه المسلمون .

وفى ذلك نزل قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) ﴾ (آل عمران : ١٧٢ ـ ١٧٤)

لم يستطع من توعدوهم بالجموع وخوفهم بكثرة الأعداء أن يفتوا فى عضدهم أو يثبطوا من عزمهم بل توكلوا على الله واستعانوا به .

وقد أقام رسول الله بحمراء الاسد الاثنين والثلاثاء والاربعاء . وكان المسلمون يوقدون تلك الليالي خمسمائة نار حتى تُرى من المكان البعيد .

وذهب صوت معسكرهم ونيرانهم فى كل وجه فكبت الله بذلك عدوهم ومن عجيب ما وقع فى حمراء الأسد أن رسول الله ﷺ ظفر بأبى عزة الشاعر الذى مَنّ عليه حين أسر ببدر من غير فداء لأجل بناته وأخذ عليه عهدا الا يُقاتلهُ ولا يكثر عليه جمعا ولا يظاهر عليه احداً . منَّ الرسول عليه وعاهده وقال فى رسول الله شعراً يذكر فيه ذلك .

لكن أبا عزة نَقَضَ العهد وخرج مع قريش فى أحد وصار يستنفر الناس ويحرضهم على قتال رسول الله بأشعاره .

فطلب الرسول ﷺ الا يفلت من اسر فأسر .

فقال : يا محمد أقلنى ومن على ودعنى لبناتى واعطيك عهدا ألا أعود لمثل ذلك .

فقال رسول الله ﷺ : لا والله . لا تمسح عارضيك بمكة تجلس عند الحجر تقول : خدعت محمدا . اضرب يا زيد عنقه « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » فضرب زيد عنقه .

وقائع وأحداث تتلى على الناس فى آيات . يراها مَنْ يراها دون تدبر أنها وقائع ماضية . ولو احسن التدبر لعرف انها حقائق هادية تُعرف من خلالها سنن الله الباقية .

حقائق بالقرآن باقية تستنير بها النفوس وتَحيا رَاشدة وهى محفوظة للتبصرة والذكرى . يستبصر بها كلُّ عبد منيب .

كما يُستبصر بما فى السماء من ضياء ونور .

فتبارك من حفظ للنفوس ذكرها وهدايتها كما حفظ للحياة نورها وضيائها وجعل فى ذلك كله تبصرة وهداية للإنسان ودعوةً لشكر نعمة ربه وذكره .

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا (٦١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا (٦٢) ﴾ (الفرقان : ٦١ ـ ٦٢)

حقائق مسطرة فى الذكر المحفوظ . آياته تتآخى مع آيات الله فى الآفاق وفى الانفس فى دعوة الإنسان إلى الحق الذى تقوم عليه السموات والارض .

فلا تغيب هذه أو تلك عن تبصرته وتذكرته ومنفعته فى ليل أو نهار حقائق للإنسان ومن أجل الإنسان .

يقرؤها ويسمعها ويبصرها وتمتزج حياته بها فى يسر لا حرج فيه وله من الاسوة والقدوة ما يغنيه ويكفيه .

وحيث نتدبر القرآن ونعمل بمقتضاه نرى الرسول ﷺ حاضرا

فيه نراه شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله باذنه وسراجا منيرا .

نراه حاضرا فى كل آيه ، تاليا لها ، مستمسكا بها متبعا لهدايتها مبينا بسنته مقاصدها وحكمتها .

نراه ﷺ موصولا بالقرآن فى كل موطن من مواطن نزوله وفى كل لحظة من لحظات حضوره .

لا ينفك عنه مبلّغا ومبلّغا ومبشرا ونذيرا .

قد امتزج به امتزاج روح بروح ونور بنور دون توقف لِمَدّه او اطفاء لنوره .

إن نطق ﷺ فبالوحى ـ لا بالهوى ـ ينطق .

وان حكم فبما أنزل الله يحكم .

والذين يؤمنون بالله لا يغيب عنهم ـ كيف حكم رسول الله ـ وهم يحكمون بما أنزل الله . ترى الرسول حاضرا في القرآن الكريم لا تخفى شمائله .

ومن صاحب القرآن نعم بصحبته وظفر بشفاعته .

وليس حضور الرسول ﷺ في القرآن مجرد تصور يمحى مع الزمن بتصور آخر .

وإنما هى الحقيقة التى حفظت للناس بحفظ القرآن وبقيت موصولة بالرحمن الذى علّم القرآن وخلق الإنسان .

فلا رحمة تُرجى ولا هداية تطلب بغير تُقىً واتباعٍ للقرآن ومن أُنزل عليه القرآن .

﴿ وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) ﴾
(الانعام : ١٥٥)

﴿ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) ﴾ (الاعراف : ١٥٨)

بذلك يكون الفوز والفلاح فى الآخرة والأولى وبغير ذلك لايكون

﴿ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) ﴾ (الاعراف : ١٥٧)

والقرآن الكريم يعطينا عليه من الله وملائكته صلاة ورحمة وتعظيما . ومن المؤمنين - وهم يأتمرون بأمر الله - صلاةٌ على النبى دائمة وتسليما .

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (٥٦) ﴾ (الأحزاب : ٥٦)

فهـــرس

الرسول فى القرآن الكريم

رقم الإيداع١٦٦٧ / ٩٨

الترقيم الدولى

I. S. B. N.
977 - 08 - 0705 - 2

هذا الكتاب

ترى الرسـول ﷺ فـى كل آية ولا
غرابـة أن تراه وأنت تستـحضـر هذه الصلة بين من
نَزَّلَ القـرآن ومن نزل به ومن نُزِّلَ عليه . ترى رسـول الله ﷺ
وهو يتلقى القرآن من لدن حكيم عليم وجبريل يقـرئه فيتبع قراءته فى
كل كلمة فلا يغـيب عنك حضور جبـريل عليه السلام كما لا يغـيب حضور
الرسول ﷺ فى كل آية من آيات القرآن الكريم وهذا الاسـتحضار لازم لمن أراد
أن يتـدبر القرآن . لأنه الإعـجاز الذى يعـرف به كـيف حُفظ القـرآن وكيف تلقـاه
الرسول ﷺ ولم يكن يدرى من قبل ما الكتـاب ولا الإيمان وما كان يتلو من قبله من
كتاب ولا يخطه بيمينه.

والكتـاب يصطفى للقارىء مـعانى اسـتلهمناها من القـرآن الكريم فى وصـف
جبريل الروح الأمين وكيف بلغ الرسول عـن ربه وهو المعصوم من الناس فبات
ﷺ فى ثبات وقوة وجهاد لا ينقطع وبقى معه وبعده القرآن الكريم معـجزة
قاهرة وباقـية . وكمـا نقرأ ونعيش مع الـرسول فى نشأته وتربيـته
وبين أهله وهم يتلون كـتاب الله الـذى لا يأتيه البـاطل من بين
يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .